جِمَاعُ القَوْلِ

٩-١) مَدْخَل:

سعينـــا إلى التَحَرِّي - عبْر فُصُولِ هذا الكِتَاب - عن أبْعَادَ «الأَزْمَةِ» التي تُعَانِي منها «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» في مُحاولاتِها المُتَعَدِّدَةِ لـ«النَّهْضَةِ» وبرامِجِها المُتَنَوِّعَةِ لـ«التّنْمية»، ورَصَدْنَــا مَحطَّاتٍ ووَقْفَــاتٍ لمسيرة «المُثقّف العربيّ» وهو يُحاوِلُ جَاهِــداً أنْ يَسْبُرَ أغْوَارَ «الإشْكَالِيّــة» المُتَفَاقِمَــة، وأنْ يجــد مَخْرَجــاً منهــا، وأنْ يقوم بمــا وَصَفَهُ نــادر فرجاني بـ«المَشْرُوع التّاريخيّ»[١١] في تَطْويرِ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية».

لقــد تَعَدَّدَتْ أُطْرُوحَــاتُ المُثقَّفين، وتَنَوَّعَتْ مُبرِّرَاتِ المُفكّريــن، في تَحْديدِ أسْبَابِ فَشَــلِ «المَشْرُوعِ النَّهْضَويّ» وإخْفَاقِ «خُطَطِ التَّنْميــة»؛ فمنهم من رأى أنّ الخَلَلَ يَكْمُنُ في «البِنْيَــةِ السِّياسِيّة» في العَالَمِ العربيّ، وشُيوعِ «ثقافة الاسْتِبْدَادِ»، وغِيَابِ «الدِّيموقراطيّة» و«الحُريّــة»، والقُصُــورِ فــي توفيــرِ مُتَطلَّبَــاتِ بِنَــاءِ «الدَّولــة العَصْريّــة» (دولــة القانون والمُؤسَّسَــات)؛ ورأى آخَرُون أنّ العَيْــبَ يَكْمُنُ في «طبيعة المُجْتمعات العربيّة» التي تُعَظِّمُ مفاهيــم «القبيلة» و«العشيرة»، وتَرْتَعُ فــي رُبُوعِ المُحَابَاةِ والوَسَاطَــةِ والمَحْسُوبِيّاتِ التي تَطْغَــى على الرُّؤية السّديدة عند اتِّخَاذِ القرارات وتوزيــعِ المَسْؤوليّات؛ ورأى بعْضهم في «نظريّة المُؤامرة» مَرْتَعاً رَحْباً لتَبْرير وَاقِعِ التّخلُّفِ والهزائم والنّكبات، واسْتَسْلَمَ بعْضهم لحــالاتٍ من «الانْبِهَــارِ» بحضارة الغَرْبِ ومُعْطياتِه؛ ممّا شَلّ مــن قُدْرتهم على التّمْحيص العَقْلانــيّ لأُسُسِ هذه الحضارة ومُقوِّمَاتِها، بينما راح آخَرُون يَنْكَفِئُون على أنْفسهم خَوْفاً من ضيــاع «الهُويّة». وأمّا ثُلّةٌ أُخْرى، فقد تَلَمَّسَتْ في «الأُطُرِ الثّقافيّة»، وبرامِجِ «الإصْلاح الاجْتماعــيّ»، وتَطْويرِ «المَنَاهِجِ التّعْليميّة»، ودَعْــمِ مَشْرُوعات «البَحْث العِلْميّ»، واسْتِيرادِ

«مُقَوِّمَاتِ التّقنيــة» ونَقْلِهَا، مَدْخَلاً إلى إحْدَاثِ التّغْييرات الإيجابيّة في الوَاقِعِ العربيّ، إلاّ أنّ كُلَّ تلـك الطُّرُوحَـاتِ - فـي مُجْمَلِهَا - كانـتْ - وما زالتْ - تُعَانِي مـن صِياغَاتٍ تَتّسِمُ بالعُمُوميّة والارْتِجَالِ والحماس اللّفْظيّ.

وهكـذا نجـدُ أنّـه بالرّغْم مـن كُلِّ تلـك الطُّرُوحَـاتِ والجُهُـودِ والاجْتِهـاداتِ فإنّ «المُجْتمعات العربيّة» في تَجْرِبتِهَا مع «النّهْضَة» - على مدى قُرابَة القَرْنَيْنِ - فَشِلَتْ فَشَلاً ذريعـاً في خَلْقِ مُسْتَلْزَمَـاتِ «الإصْلاح النّهضويّ» و«التّنْمية الشّامِلَـة»؛ وبالتّالي بَقِيَتْ كُلُّ الشِّعَـارَاتِ الكُبْرى، التي طَرَحَتْهَا التّياراتُ والنُّخَبُ العربيّة المُخْتلفة، مُجَرَّدَ راياتٍ تُلْهِبُ الحماس وتُدغْـدِغُ المشاعِر، وبَقِيَتْ كُلُّ الدِّراسات والأُطْرُوحـات حبيسةَ عُقُولِ أصْحابها أو أسيـرةَ مَواقِعِ النُّخَبِ في المكْتبات والجامعات والنّدوات والمُؤتمرات. وأمّا على صعيد الوَاقِـعِ الاجْتماعـيّ والسّياسـيّ، وحِسَابات الإنْتاج و«معاييـر التّنْميـة» الموضوعيّة، فإنّ المُشْكلات ما فَتِئَتْ تَتَفَاقَمُ، والأزْمَات تَسْتَفْحِلُ، ممّا يُعِيدُ إلى الوَاجِهَةِ السُّؤالَ ذاته الذي يـكادُ يَبْدُو أزليّاً، وتَرَدَّدَ في فِكْرِ الأُمّـة منذ بِدايات القَرْنِ التّاسع عشر الميلاديّ: (لماذا تَأَخَّرْنَا وتَقَدَّمَ غيرُنا؟).

لقد تَنَبَّهَ زهير الكرمي[٧٧] - منذ السّبعينات في القَرْن الماضي - إلى الوَضْعِ الفَادِحِ في «الفِكْرِ العربيّ» الذي لم يَسْتَطِعْ أنْ يُمَيِّزَ بين مَفْهُومَيْ «الحضارة الغَرْبِيّة» و«الحضارة العِلْميّة الحديثة»؛ فللأولى: (جُذُورٌ دينيّةٌ وفَلْسَفيّةٌ وَاضِحَةٌ ومُنَاخٌ فِكْرِيٌّ مُمَيِّز)، وللثّانية: (طبيعـةٌ عَالَميّـةٌ غيـر مُرْتَبِطَةٍ ببيئةٍ مُحَـدَّدَةٍ أو بوطـنٍ أو بأُمّة)، ويَخْلُصُ الكرمي إلى نتيجـةٍ مُهِمّةٍ وهي أنّ: (زُعمـاء الفِكْرِ العربيّ المُتَفَتِّحِ غرقوا فـي بِحَارِ الحضارة الغَرْبِيّة «الليبراليّة» يُتَرْجِمُونَ تُراثَهَا وإنْتاجَها الثّقافيّ وبشَكْلٍ خاصٍّ الأدبيّ والفَنِّيّ منه، بَلْ وارْتَدَّ بعْضهـم إلـى أُصُولِهَا اليونانيّة والرومانيّة، وكُلُّ هذا جميلٌ، لو أنّه كان جُهْداً ثانويّاً، أو لم يَسْتَنْفِـدْ كُلَّ الطّاقاتِ الفعّالَةِ في ذلك الزّمن)؛ وأمّا المَأْخَذُ الرّئيسُ - وفْق طرْح الكرمي - فهـو أنّ مُثقّفي الأُمّة (لم يُمَيِّزوا بين «الحضارة الغَرْبيّـة» و«الحضارة العِلْميّة»، لا..بَلْ أنّهـم عُمُوا عن «الحضارة العِلْميّة» كُلِّيَّةً، ووَجَّهُوا جُهْدَ الأُمّة العربيّة سنواتٍ طوالٍ توجيهاً

خَاطِئـاً، وكانتْ الأُمّةُ مُطْمَئِنَّةً خلالها إلى أنّها سَائِـرَةٌ على الدَّرْبِ، فإذا بها تَكْتَشِفُ أنّها كانتْ تَحُثُّ الخُطَى في دَرْبٍ آخر مُخْتلفٍ، ولا يُؤدِّي إلى نفْس الهدف المُبْتَغَى).

لقـد بَقِيَتْ الأسْئلةُ حيرى تَائِهَةً منذ بُزُوغِ ما أَطْلَقُوا عليه اسْم «عَصْر النَّهْضَة»؛ لأنّ «المُجْتمعـات العربيّة» لم تُغَيِّرْ من صِيَغِ الأسْئلة، ولم تُبَدِّلْ طُرُقَ التّعامُل معها، ولم تُطَوِّرْ نَمَطَ خِطَابِهَا؛ وأمّا في حالاتٍ جريئةٍ وعميقةٍ مَحْدُودَةٍ – كما وجدنا في سِياق هذا الكِتَاب -، فإنّـه – بعـد محاولات التّفْكيكِ والنّقْدِ والتّحْديثِ والتّحْليـلِ – يَرْتَدُّ «الخِطَابُ العربيُّ» مـن جديدٍ إلى أُصُولِهِ الخَطَابيّة ومُتُونِهِ اللّغَوِيّة وشُرُوحَاتِهِ البلاغيّة، وفي أحْسن الحالات يُغْـرِقُ في المُعالَجَاتِ الفَلْسَفيّة، ويَحُومُ حول الحِمَـى ولكنّه لا يَقَعُ فيه!. وفي هذا الفضاء التّنظيـريّ الشّاسِـعِ بين المُدَاولاتِ المُتَكَـرِّرَةِ واجْتِرَارِ الأَلْفَـاظِ المُتَشَابِهَة، فإنّ شيئاً ذا بـالٍ لم يَطْرَأ علـى «الوَعْي العربيّ»؛ صحيـحٌ أنّ هناك تحوُّلاتٍ لَفْظيّـةً ومُعَالَجَاتٍ شَكْليّةً ومُصْطلحاتٍ حديثةً، ولكنّها كُلُّها لم تُلامِسْ شِغَافَ «الوِجْدَانِ العربيّ» لتَدْفَعَهُ في الاتّجاه الصّحيـح، ولـم تَسْتَثِـرْ فيروسات عَقْلِـهِ لتُحَفِّزَهُ على طريـق الإنْتاج والإبْـداع، ولذا بَقِيَ «الوَاقِعُ العربيّ» بمَنْأىً عن ذلك «التَّحَوُّلِ النَّوْعيّ» على «دَرْبِ النَّهْضَة» و«مَسَارِ التَّنْمية».

٩-٢) بَرَامِجُ «التّنْمية النَّمَطِيّة»:

لقـد عَاشَتْ «المُجْتمعـاتُ العربيّةُ» أنْمَاطاً مُخْتلفة من سياسـات «التَّنْمية» وتجارِب «النَّهْضَـة»، واعْتَمَدَتْ – اعْتِمـاداً شِبْه مُطْلَقٍ – على نَقْلِ نمـاذِج جَاهِزَةٍ من «المُجْتمعات الغَرْبيّة» واستِنْسَاخ تجاربها دون مُساءَلةٍ موضوعيّةٍ لمُحْتواها، أو تَكْييفٍ جَادٍّ لمضامينها؛ لتتحوَّلَ بذلك إلى مُجَرَّدِ «أنْمَاطٍ تَقْليديّةٍ» يُجَرِّبُهَا الجميع، وتَفْشَلُ مع الجميع، فكما يقولُ نادر فرجاني: (قد صار فَشَلُ هذا النّموذج مُوَثَّقاً ممّا يَجْعَلُ الخَوْضَ في الموضوع من قبيل التَّكْرَارِ المُمِلّ)[١١]. وفي هذا السِّياق يَنْبَغِي أنْ نَتَوَقَّفَ أمام فِكْرَةِ «المراكِز المُضِيئة» التي طَرَحَهَـا أحمد زويل[٧٠]، وهي: (مُدُنٌ عِلْميّةٌ رفيعةُ المُسْتَـوى ومَرْمُوقةٌ بالمعايير العَالَميّة فـي أكْثر بلاد العَالَم تقدُّماً)، وهي بذلك تكونُ علـى النَّسَقِ نفْسه الذي عايشه وتَألَّقَ فيه أحمد زويل في أمريكا، ويرى زويل أنّ بإمْكان هذه المراكِز أنْ: (تَصِلَ بالعِلْمِ والتِّكنولوجيا

في المجالات التي عُنِيَتْ بها إلى مُسْتوىً عَالَميٍّ بَالِغ الرِّفْعَةِ برغم الفَقْرِ والجَهْلِ الذي يُحِيطُ بهذه المُدُن الاسْتثنائيّة من عُمُومِ الشَّعْبِ وعَوَامِّ النَّاس).

نَسْتطيعُ القول إنّ مَفْهُومَ «المراكِز المُضِيئَة» قد اسْتطاع أنْ يَجِدَ له محاضِن عِدَّةً منذ فَتْرةٍ ليستْ بالقصيرة في تَجَارِب «المُجْتمعات العربيّة»، وبالرّغْم ممّا لهذه الرُّؤية من وَجَاهَةٍ في مُحاولةٍ للتّصدِّي للوَاقِعِ المُتَرَدِّي، وإنْقَاذِ ما يُمْكِنُ إنْقَاذُه، إلاّ أنّها ليستْ حَلاًّ للسُّؤال الذي يَطْرَحُهُ ويُجيبُ عنه زويل نفْسه: (هل يُمْكِنُ لـ«العِلْم» أنْ يتفاعل ويُعْطِي دونما بيئةٍ مُنَاسِبَةٍ وأجْوَاءٍ صَالِحَةٍ؟ الإجابة: لا، فهناك ما يُمْكِنُ تَسْميتها بـ«الشُّرُوطِ الاجْتماعيّة للعِلْم»، ولولا هذه الشُّرُوطِ لما أَمْكَنَ لـ«العِلْم» أنْ يَنْهَضَ بذاته أو يَنْهَضَ بمُسْتَخْدميه، فـ«العِلْمُ» ليس وَهْباً أو عَطَاءً بقَدْرِ ما هو كَسْبٌ واجْتِهَاد)[٧٠]. وهكذا نجدُ أنّ هذه «المراكِز المُضِيئَة»، باعْتِرافِ زويل، هي قَفْزٌ على وَاقِعِ «المُجْتمعات العربيّة» التي - في رأيه - قد (تأْخُذُ وَقْتاً طويلاً لتُصْبِغَ بالطّابَعِ العِلْميّ، وقد لا يكونُ من الحِكْمَةِ الانْتظارُ حتى يَتَشَكَّلَ «المُجْتمعُ العِلْميُّ» تِلْقَاءَ ذاته ثم يكون العِلْمُ والتِّكنولوجيا)[٧٠]؛ ولا شكَّ في أنّ هذه المراكِز وغيرها من برامج «التّنْمية النَّمَطِيّة» تَأْتي من باب القَاعِدَةِ المَعْرُوفة: (ما لا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ جُلُّهُ)، ولكنّها، دون شَكٍّ ووفْق تَعْبير عُلماء الرّياضيّات، (شَرْطٌ ضَروريٌّ ولكنّه غير كَافٍ) لقِيام «المُجْتمع العِلْميّ».

من الوَاضِحِ أنّ مِثْلَ هذه «المراكِز المُضِيئَة»، لو تَغَلَّبَتْ على عَوائِق البيئة المُحيطة ومُشْكلات البيروقراطيّة المُهَيْمِنَة، فإنّ تأْثيرها في ما حولها سيكون مَحْدُوداً، وإشْعاعها سيَتَفَرَّقُ في سَمَاءٍ مُلَبَّدَةٍ بضباب التَّخَلُّف، ومَوْجَاتِهَا ستَتَشَتَّتُ بفِعْلِ غُبَارِ السّلْبيّة واللامبالاة؛ وأمّا النّتيجةُ الحَتْمِيّةُ فهي ما أَقَرَّ به زويل[٧٠] عندما تَطَرَّقَ إلى جُهُودِ العُلماء (الذين غيَّرُوا شَكْلَ الحياة على وَجْهِ الأرْض) فكتب يقول: (وما كان لجُهْدهم العظيم وعطائهم الوفير أنْ يكون له هذا الأثر لولا تَهَيُّؤ البيئة الاجْتماعيّة لاسْتِقْبَالِ «العِلْم» الذي أتوه. وفي المَرّاتِ التي كان المُجْتمع فيها غير أهْلٍ للتّعامُل مع نتائِج «العِلْم» وجُهُود العُلماء كان «العِلْمُ» يَذْبُل). تلك الحقائِق تُؤَكِّدُ أنّ الاهْتمام فقط بتَشْييد جُزُرٍ تِقنيّةٍ أو صِناعيّةٍ، أو بَحْثيّةٍ مَعْزُولةٍ عن وَسَطِهَا الجماهيريّ، يَجْعَلُهَا تُصْبِحُ مُجَرَّدَ «مُجَمَّعَاتٍ نُخْبَوِيّةٍ» لا

تُمَثِّـلُ ولا تتفاعلُ مع القَاعِدَةِ الواسِعَـةِ من المُجْتمع، وبذلك تَتَحَوَّلُ - في أغْلب الأحْوال - إلـى مُجَرَّدِ «فِيلةٍ بيضاء» كما يقولون، أو تُصْبِـحُ - وفْق مَقولة زهير الكرمي - «مُعْتَقَلاتٍ عِلْميّـةً»[٧٧]؛ فهي غير قَادِرَةٍ على أنْ تُؤثِّرَ أو تَتَأثَّرَ بمُحِيطِهَا بالشَّكْلِ المَطْلُوب، ويَبْقَى سِرُّ بقائهـا مُرْتَبِطاً باعْتمادها الأكْبر على ما يَرِدُهَا من خَـارِجِ البِيئة في عُزْلةٍ عن تفاعُلاتِ الأغْلبيّـة من النّاس في الوطـن وهُمُومِهِمْ ومُتَطلَّبَاتِهِمْ، وهذا مـا يُؤكِّدُهُ فلاح سعيد جبر عندمـا وَصَفَ مِثْل هذه الكِيانـات بأنّها: (تُشَكِّلُ جُزُراً صِناعيّـةً أو زِراعيّةً قليلة الفاعِليّة والتّأثير على مُجْمَلِ اقْتصاديّات تلك الكِيانات دون أيِّ روابِط تَشُدُّهَا إلى بقيّةِ القطاعات التي تَسْتَخْدِمُهَا الأكْثريّةُ السّاحِقَةُ من الجماهير في معيشتِها)[٧٥].

إنّ الإشْكَاليّـةَ في تلـك «المراكِز المُضيئة» - مهما صَاحَبَهَا من وَهَجٍ إعْلاميٍّ ساعة تَأْسيسِهـا، ومهمـا وَاكَبَهَا من إشـاداتٍ وتفاؤلاتٍ إبّـان تَجْهيزِهَا - هو أنّهـا عندما تَفْقِدُ المُسَانَـدَةَ الثّقافيّـة والدَّعْـمَ المُجْتمعيّ، فإنّها تَنْفَصِـلُ تدْريجيّاً عـن مُجْتمعها - زماناً ومكاناً -، وتَذْبُلُ مُقَوِّمَاتُهَا وقُدْرَاتُهَا؛ ليُضِيفَ حُضُورُهَا اضْطِرَاباً إلى «المَشْهَدِ الثّقافيّ»، وارْتِبَـاكاً فـي «التَّفَاعُـلِ المُجْتمعـيّ» في شـيءٍ مُمَاثِلٍ لمـا أَسْمَاهُ محمد عابـد الجابريّ (تَدَاخُلُ الأَزْمِنَةِ الثّقافيّة)[١]، بينما تَتَلَبَّدُ رُؤى المُسْتَقْبَل بغُيُوم تحدّياتٍ مُتزايدةٍ وضُغُوطٍ مُتنامية. في الوَاقِعِ أنّ هذه «المراكِز المُضيئة»، وغيرها من نماذِج نَمَطِيّةٍ، ليستْ جديدةً فـي «التّجْرِبَةِ العربيّة»، فهناك الكثيرُ مـن المراكِز الصّناعيّة والبَحْثيّة والعِلْميّة والتّقنيّة التـي تَأَسَّسَتْ وهي تَحْمِلُ أحْلاماً كبيـرةً، وتُبَشِّرُ بوعودٍ ليس هذا مقام عَدِّهَا وتَصْنيفِهَا، إلاّ أنّ الوَاقِعَ المُشَاهَدَ يُؤكِّدُ فَشَلَ كثيرٍ منها، بينما اسْتطاع بعْضها القليل أنْ يَحْتَفِظَ بقَدْرٍ من حيويّته عبْر ارْتباطه بشِرْيان الحياة العِلْميّة والمَدِّ التّقنيّ في العَالَمِ الغَرْبيّ.

وهكـذا تُصْبِحُ تلـك الجُزُرُ التّقنيّـة والبَحْثيّة والعِلْميّـة قليلة الفَاعِليّـة والتّأثير في مُجْمَـلِ الأنْشطة القَائِمَة، وتَسْتَمِرُّ دون رَوابِط متينـةٍ، تَشُدُّهَا إلى التّفاعُلاتِ السّائِدَةِ في مُجْتمعِهـا؛ ولأنّ «ظَاهِـرَةَ العِلْمِ والتّقْنية» هـي «ظَاهِرَةٌ جماعيّةٌ» تَخْضَـعُ لجُهُودٍ تراكُميّةٍ وتفاعُلاتٍ عميقةٍ على المُسْتوى العملـيّ والفِكْريّ والثّقافيّ، فإنّ تلك «المراكِز المُضيئة» ستَذْوَى حَتْماً إذا انْعَدَمَتْ - أو ضَعُفَتْ - تلك «البِنْيَةُ التَّحْتيّةُ الثّقافيّةُ» التي تَسْنُدُهَا، وتَدْفَعُ

بها على طريق الإنْجاز والرُّسُوخ والتَّطوُّر. وبالرّغم من طَرْحِ أحمد زويل لمَفْهُوم «المراكِز المُضيئة» كمَخْرَج من «عُنُقِ الزُّجَاجَةِ التّنْمَويّ»، إلاّ أنّ الرُّؤية الثّقافيّة والتّفاعُلات المُجْتمعيّة تَبْقَى وَاضِحَةً لدى زويل حيث يقول: (وما اعْتَقِدُهُ في هذا الشّأن هو أنْ لا أمل في إنْجاز عِلْمٍ أو تَنْمية شَعْبٍ أو إحْداث التَّطوُّر اللائِق لنَمَطِ الحياة دون وجود «المُجْتمع العِلْميّ» بركائزه الثّلاث: العِلْمُ والتّكْنولوجيا والمُجْتمع، وكُلُّهم يُشَكِّلُون مُثَلَّثاً مُتساوي الأضْلاع، فـ«العِلْمُ» يَخْلُقُ «التّكْنولوجيا»، وهي تَدْفَعُهُ ثانيةً للتّطْوير، وكِلاهُما لا يُوجَدُ على نَحْوٍ مُكْتَمِلٍ إلاّ في «مُجْتمعٍ عِلْميٍّ»، و«المُجْتمع العِلْميّ» بدَوْرِهِ يُهَيِّئُ السّبيل لـ«العِلْم»، ويَسْتَقْبِلُ نتائِجَه، مُهَيِّئاً السّبيل مَرَّةً أُخْرى لتَطْبيقاته، وفي الدُّولِ المُتَقَدِّمَةِ يكون إنْجَازُ «العِلْمِ» وإبْهَارُ «التّكْنولوجيا» ودِقَّتُهَا على قَدْرِ تَشَرُّبِ المُجْتمع بـ«الثَّقافة العِلْميّة»)[٧٠].

وأمّا مالك بن نبيّ، فقد أدْرَكَ طبيعة تلك الجُهُودِ وضَعْفِهَا في تأْمين العِلاج النّاجِع عندما كتب يقول: (العالَمُ الإسْلاميُّ يتعاطى هنا «حَبَّةً» ضِدّ الجَهْل، ويأْخُذُ هناك «قُرْصاً» ضِدّ الاسْتعمار، وفي مكانٍ قَصِيٍّ يتناولُ «عقاراً» كي يَشْفَى من الفَقْر، فهو يَبْني هنا مَدْرَسَةً، ويُطَالِبُ هنالك باسْتقلالِه، ويُنْشِئُ في بُقْعَةٍ قَاصِيةٍ مَصْنَعاً. ولكنّنا حين نَبْحَثُ حالته عن كثبٍ لن نَلْمَسَ شَبَحَ البُرْءِ، أيْ أنّنا لن نجد حضارة)[٢]. ذلك «التَّفاعُلُ السَّطْحِيُّ»، وتلك المُفَارَقَاتُ المُؤَرِّقَةُ في طبيعة تفاعُلات الحُضُورِ العِلْميّ والتّقنيّ في العَالَم العربيّ، هي الأَمْرُ الذي تَنَبَّهَ إليه أيضاً نجيب عيسى وهو يُقَرِّرُ: (لم تَمُدّ التّكْنولوجيا الوَافِدَةُ جُذُوراً عميقة لا في المُجْتمع، ولا حتّى في الاقْتصاد، فلم يكنْ للصّناعات التي تَلَقَّتْهَا وعلى مُخْتلف أنْواعها ذلك المَفْعُولُ الانْتشاريّ الكبير الذي عُقِدَتْ عليه الآمالُ العِرَاضُ لإخْرَاجِ البلاد من مُسْتَنْقَعِ التَّخَلُّف، وبَقِيَتْ مَحْصُورَةً في جُيُوبٍ صغيرةٍ ضعيفة الرّوابِط فيما بينها وبين سَائِرِ قِطَاعَاتِ المُجْتمع والاقْتصاد)[٢٢].

٩-٢-١) هل نَحْتاج إلى آينشتاين عربيّ؟:

لقد تَسَاءَلْتُ أكْثر من مَرَّةٍ: (هل نَحْتَاجُ إلى آينشتاين عربيّ؟)[١٠٧]، والإجابةُ العمليّةُ القَاطِعَةُ – في رأْيي – هي: (أنّنا لا نَحْتَاجُ في هذه المرْحلة إلى هذا النَّوْعِ من «التَّرَفِ

العِلْميّ») ؛ فنحن نُخْطِئ كثيراً إذا اعْتَقَدْنَا أنّ فَوْزَ وَاحِدٍ أو اثنين أو أكْثر من العُلماء العرب بـ«جائـزة نوبل» أو مـا مَاثَلَهَا من جَوائِز قيِّمَةٍ فـي المجالات العِلْميّـة والتّطْبيقيّة، سيكون إعْلانـاً بتَسَنُّمِنَا القِمّة إلى جِـوَارِ عَمَالِقَةِ العَصْرِ الحديث ونُمُورِ الإنْتـاج والتّقْنية. إنّ مِثْلَ هـذا التّصوُّر يُبَيِّنُ سُوءَ فَهْم فَـادِحٍ لطبيعة «الحركة العِلْميّة الحديثـة» ومُتَطَلَّبَاتِهَا، ويُبْرِزُ جَهْلاً جَلِيًّاً بشُرُوطِ «القَفْزَة التّقنيّة» وضَوابِطِهَا؛ فـ«التَّطَوُّرُ العِلْميّ - التّقنيّ» هو نِتَاجُ «عملٍ جماعـيٍّ»، تتضافرُ فيه جُهُودُ فِرَقٍ مُخْتلفةِ الاهْتمامات العِلْميّة والمهارات التّقنيّة، وليستْ كُلُّها في ذكاء آينشتاين ولا عَبْقريّة نيوتن، ولكنّها - في غَالِبيّتها السّاحِقَة - قُدْرَاتٌ عاديّةٌ جِـدّاً تَـمّ توجيهها وتَفْعيل طاقاتها؛ كُلٌّ في مجاله، وما تَيَسَّـرَ له، وكُلٌّ يُؤَدّي عمله المُحَدَّدَ فـي تلك المَنْظُومَةِ المُتَنَاغِمَةِ مُدْرِكاً أنّ دَوْرَهُ - مهما كان صغيراً - أَمْرٌ لازِمٌ لدَفْعِ العَجَلَةِ وتَأْمين مَسَارِهَا.

إنّ الأَسْئِلَـة، التي تُجْلِي طبيعة هذه الإشْكَاليّة، هي: (ماذا نَتَوَقَّعُ لو قَرَّرَ أحمد زويل، ونُخْبَةٌ من العرب المُهَاجِرين الأَكْفَاء، أنْ يعودوا فجأةً إلى أيِّ بلدٍ عربيٍّ، ويضعوا علومهم في خِدْمَةِ «الحركة التَّنْمَويّة» فيه؟ هل سيَتَغَلَّبُ ذلك البلد على مُشْكلات التَّخَلُّف، ويُمْسِكُ بزِمام الإنْتاج، ويُنافِسُ الآخَرين في مَتَانَةِ اقْتِصاده، وجَوْدَةِ صِناعته، وتَفَوُّقِ مُبْتكراته؟ هل سيجِـدُ أولئك العُلماء والتّقنيّون «البِنْيَةَ التَّحْتيّة» القَادِرَةَ على دَعْمِ جُهُودِهم، وامْتِصاصِ عطاءاتِهم، وتَطْويرِ إبْداعاتِهم؟) . وأمّا الإجابةُ عن هذه الأَسْئلة فمَتْرُوكَةٌ لخيال المُواطِن العـاديّ، وهـو يجـوبُ بنظره في وَاقِـعِ العَالَمِ العربـيّ، وقـد أَمْسَكَتْ بتلابيبـه مُشْكلاتٌ تَعْليميّـة، وبُحُـوثٌ مُشَتَّتَةٌ، وكفاءاتٌ مُهْـدَرَةٌ، وإخْفَاقَـاتٌ إداريّةٌ، وضبابيّـةٌ إستراتيجيّةٌ، وقـراراتٌ مِزاجيّـة. وأمّا الأَمْرُ المُؤَكَّـدُ عِنْدي، فهو أنّ أحمد زويـل، وغيره من الكفاءات المُهَاجِرَةِ، لن يَسْتطيعوا أنْ يَفْعَلُوا شيئاً إزاء هذا الوَاقِعِ إلاّ أنْ يَحْزِمُوا حقائبهم، ويعودوا مِـن حيث أتوا، حيـث تتوافرُ لهم «بِنْيَةٌ تَحْتيّةٌ» تَدْعَمُهُمْ في تَفْعيل جُهُودِهِمْ، وتُؤازِرُهُم في تَطْوير طُمُوحَاتِهِمْ.

مِـن المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّة» حركةٌ بشريّةٌ مُتَلاقِحَةٌ، تتدافعُ على مِساحتها جُهُودٌ شَتّى، وتتساندُ في رُبُوعِهَا اهتماماتٌ مُخْتلفةٌ، وتتضافرُ على طريقها

تخصُّصـاتٌ مُتَنَوِّعـةٌ؛ ومن هـذه الحقيقة، يَنْبَغِـي أنْ يَبْرُزَ نَمَطٌ فـي التّخْطيط والتّفْكير والمُمَارَسَـةِ، قَـادرٌ علـى اسْتِيعابِ تلك المضاميـن، والتّغَلُّبِ على عقباتِهـا، والتّحَكُّم في مَسَارَاتِهَـا. لقـد أَصْبَحَـتْ «العلوم الحديثـة»، و«التّقْنيات المُتَطـوِّرَة»، عمـلاً مُؤسَّسَـاتيّاً ضَخْمـاً، سواءً من ناحية التّمْويل اللاّزِم أو الكثافة البشريّة العَامِلَة، وأَصْبَحَ النُّبُوغُ نِتَاجاً طبيعيّاً لتُرْبَةٍ غنيّةٍ بعناصِر النُّموّ المُتَمَثِّلَةِ في جحافِل من العَامِلين العاديّين ذوي مهاراتٍ مُخْتلفـةٍ وفـي مجالاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، ودونها يُصْبِحُ أيُّ نُبُوغٍ صَيْحَةً في وادٍ لا تَجِدُ لها صدىً ولا تَتْـرُكُ أثراً. ومن هذا المُنْطَلَقِ، فإنّ الاهْتمام في «الدُّول النّامية» يَنْبَغِي أنْ يَنْصَبَّ بشَكْلٍ وَاضِـحٍ على توسيع «القَاعِدَةِ العريضة» التي تُمَثِّلُ «البِنْيَةَ التّحْتيّة» اللاّزِمَةَ لدَفْعِ «الحركة العِلْميّـة – التّقنيّة» وتَعْميقِها فـي «نسيج المُجْتمع»، كما يَنْبَغِي الاهْتمامُ بتعدُّد المُؤسَّسَاتِ – الخاصّ منها والعامّ – التـي تَعْمَلُ – في تَكَاتُفٍ وتَنْسيقٍ – عبْـر «خُطَّةٍ وطنيّةٍ» وَاضِحَةِ الملامِـح وواقعيّةِ الرُّؤية، وتُعْنَى بالفَـرْدِ والجماعة، وتُطَوِّرُ القُـدُرَاتِ المُتَفَاوِتَةَ، وتُوَظِّفُ المهاراتِ المُتَعَدِّدَةَ، في مَنْظُومَةٍ مُتفاعِلَةٍ في حيويّةٍ وتَكَامُلٍ.

وهكـذا نـرى أنّ الإجابة عـن سُؤالنا: (هـل نَحْتَاجُ إلـى آينشتاين عربـيّ؟) تُوجِزُ الأولويّـاتِ الـلاّزِمِ تَبَنِّيهَا، كما تُوجِـزُ طبيعـة «الإسْتراتيجيّة» اللاّزمـة للإسْهَام في حَلِّ «إشْكَاليّـة التّنْميـة»؛ فالعطاءُ العِلْميُّ إنْ بَقِيَ رهينة عَقْلٍ وَاحِدٍ انْتَهَى بنهايته، كما أنّ بقاء العمـل العِلْميّ حبيس أَسْوَارِ معاقِل هنا وهناك هو حُكْمٌ عليه بالفَنَاءِ، أو ارْتِهَانُهُ لعطاءاتِ وإنْجازاتِ «المُجْتمعات المُتَقدِّمَة». إنّ «التّنْمية» العَاجِزَةَ عن التّمَدُّدِ – أفقيّاً ورأسيّاً – هي تَنْميةٌ فَاشِلَةٌ؛ لأنّ «التّجْرِبَةَ التّنْمَوِيّةَ» الحَقّةَ هي تلك القَادِرَةُ على «التّمَدُّدِ الأفقيّ»، لتَكْسَبَ إلـى دَاخِلِ حُدُودِهَا يوميّاً قِطَاعَاتٍ جديـدةً ودِمَاءً شابّةً ومُعْطياتٍ محليّةً، وهي القَادِرَةُ – أيضـاً – على «التّمَدُّدِ الرّأْسيّ»، فتَتَحَسَّنَ نَوْعِيّتُهَا، ويَرْتَقِي أداؤها، وتَتَعَمَّقَ تفاعُلاتُها. ولا شـكّ في أنّ تلك «المراكِز المُضيئة»، التي نَصَحَ بهـا أحمد زويل[٧٠]، وغيرها من وسائل «التّنْميـة النّمَطِيّة»، جُـزْءٌ من الحَلّ، ولكنّها جُزْءٌ غيـر قادرٍ وَحْدَهُ على إحْـدَاثِ «النّقْلَة» المَطْلوبـة؛ فاقْتِرَاحُ «المَشْرُوعـات التّنْمَوية» على غِرَارِ «المراكِز المُضيئـة» يَتَعَدَّدُ بشَكْلٍ لافِـتٍ للنّظَرِ في العَالَمِ العربيّ في مجالات الصّناعة والتّعْليم والبَحْث والتّطْوير وغيرها،

ولكنّهـا - فـي مُعْظَم الحالات - تَبْقَى مُجَرَّدَ حِبْرٍ علـى وَرَقٍ، أو تَدْخُلُ في متاهات «ثقافة اللّفْـظ» و«مِصْيَدَة البيروقراطيّة»، أو تَخْرُجُ إلـى حَيِّز التّنْفيذ، وقد أَصابَتْهَا نَوازِلُ العَجْزِ والجَهْـلِ والتّخَبُّطِ، لتَتَرَنَّحَ على «خريطة التَّنْميـة» مُشَوَّهَةً وكَسِيحَة. إنّ أكْبَرَ خَوْفي هو أنْ تَتَحَوَّلَ تلك «المراكِزُ المُضيئةُ» إلى «مُعْتَقَلاتٍ عِلْميّة» وفْق الوَصْفِ البليغ لزهير كرمي[٧٧]، وأكْبَرَ خَوْفِي أنْ لا يكون الطّريق أمام القَاطِرَةِ مُعَبّداً وسَالِكاً، وأنْ تَعْتَرِضَ حركتها فَجْواتُ «الأُمِّيّـة العِلْميّة»، ويَنْخُرُ فـي قُضْبَانِهَا صَدَأُ «البيروقراطيّة»، ويُوهِـنُ تماسُكها «الفَسَادُ» بأنْواعِـه، وتَنْسِـفُ خُطُوطَهَا «ثقافـةٌ كلاميّةٌ» مُتَأصِّلـةٌ تَنْخَرِطُ في متاهـات الإنْشائيّات، وعَواصِف الجَدَل، ونَعَرَاتِ التَّعَصُّب، وفوضى المَحْسُوبيّة.

عُموماً، فإنّنا نَتّفِقُ بأنّ كُلَّ جُهْدٍ يَصُبُّ في توفيرِ مزيدٍ من الدّعائم العِلْميّة والوسائِط التّقنيّـة أَمْرٌ مَطْلوبٌ وضَـروريٌّ لكُلِّ مُجْتمع، وبالتّالي فإنّ «المراكِـزَ المُضيئة»، و«معاهِدَ التَّمَيُّـز»، وقِلاعَ الصّناعة، ومراكِـزَ التّدريب المُتَطوِّرَة، وحَمَلَةَ «جَائِـزَةِ نوبل»؛ كُلُّها أمورٌ مُرَحَّبٌ بها لرَفْعِ وتيرة «التّنْمية»، ودَفْعِ حركة المُجْتمع، ولكن لكي لا نَحْرُثَ في البَحْر يجب أنْ لا تغيب عن إسْتراتيجيّتنا وخُطَطِنَا تلك «الأولويّةُ الأهَمُّ»، وهي العملُ على الحيلولة دون تَحَوُّلِهَـا إلى «فِيَلَةٍ بيضاء» وجُـزُرٍ مَعْزُولَةٍ، والحِرْصُ على تَفْعيلِ تلك الجُزُر، ورَبْطُ بعْضها ببعْضٍ، وتوفيرُ «المُنَاخِ المُنَاسِبِ» لها؛ لتَنْمُـوَ وتَتَرعْرَعَ وتَزْدَهِر. إنّ هذه «الأولويّةَ الأهَمَّ» تَتَمَحْـوَرُ في أُطُرِهَا المُتَنَوِّعَة، وتَلْتَفُّ في تَرْكيباتِهـا المُتَعَدِّدَة، حول «الثّقافة العِلْميّة» بكُلِّ مُكَوِّنَاتِهَـا وأبْعَادِهَا وآفاقِها وقِيَمِهَا وضَوَابِطِهَا، وهي القضيّـةُ التي حَرَصْنَا على تَأْصيلِها في هذا الكِتاب، وسَعَيْنَا إلى إبْرازِ مَعَالِمِهَا وتَأْسيسِ «الرُّؤية الإسْتراتيجيّة» لها.

٩-٢-٢) «الرّأسمال البشريّ» و«نزيف الأدْمغَة»:

لقـد مَيَّزَ فرانسيس فوكوياما بين مَفْهُـوم «الرّأسمال البشريّ»، ومَفْهُوم «الرّأسمال الاجْتماعـيّ»، وأَوضح أنّ: («الرّأسمال البشـريّ» ليس قِيمَةً مُنْتِجَةً ما لم يَسْنُدْهُ «رأسمال اجْتماعـيّ»، بمَعْنَى أنّـك تَسْتطيعُ أنْ تُكَـوِّنَ النّاس في مُخْتلف ميادِيـن المعارِف والمهن والتّخصُّصـات، ولكنّهـم لن يكونوا حقيقةً مُنْتِجين، ما لم يكـنْ مُجْتمعهم قد تواطأ على

قِيَـم اجْتماعيّةٍ من ثِقَةٍ فـي التَّعامل، والْتِزَام بالتَّعاقُد، ووجود بيئـةٍ اجْتماعيّةٍ تُتِيحُ تَدَفُّقَ المَعْلُومـات وأخْلاقيَّات العمل والجِدِّ فيـه وإتْقَانِه. وهذا كُلُّهُ «رأسمال اجْتماعيّ» يَأْتِي من التَّربية التي تُوفِّرُهَا الأُسْرَة، ومن رصيد القِيَم والسُّلُوكِ في المُجْتمع)[٣٧].

أمّا أحدُ أبْرز الأوجاع، الذي تُعانِي منه «الدُّول النّامية»، فهو ذلك النَّزيفُ المُسْتَمِرُّ، والخَسَارَةُ المُتَفَاقِمَةُ، فيما عُرِفَ بـ«نزيف الأَدْمِغَة»، ويَتَمَثَّلُ في الهِجْرَةِ المُتزايدةِ لعُلمائها ومُهندسيهـا وأطبّائهـا وتقنيّيها وفنّيّيهـا والأيدي العَامِلَـةِ المُدَرَّبَة، فتَنْتَقِـلُ تلك العُقُولُ والمهـاراتُ إلـى تُرْبَةٍ خِصْبَـةٍ في دُول «العالَم الغَرْبـيّ» التي وَفَّـرَتْ كُلَّ الحوافز، وهَيَّأَتْ كُلَّ العناصِـر لاسْتِقْبَـالِ تلك العُقُـولِ، والاسْتِفَادَةِ مِـن طاقاتِها، لتَعْمَلَ في بيئَـةٍ مُنَاسِبَةٍ قَـادِرَةٍ على تَطْويرِها وتَفْعيلِهـا وإثْرَائِهَا، ولتَجُوبَ آفاق «مُنَاخٍ عِلْمِـيٍّ» مُحَفِّزٍ على الإبْداع والإنْجـاز. وأمّا ذلك الحديثُ المُتَكَـرِّرُ عن «تَنْويع مَصَادِرِ الدَّخْل» فـي «الدُّول العربيّة»، وجَـذْبِ الاسْتثمارات الأجْنبيّة، فـإنّ أشدّ مَوانِع «تَنْويع مَصَادِر الدَّخْل»، وأكْبر قُوّةٍ طَارِدَةٍ لـ«الاسْتِثْمَارِ الأجْنبيّ»، هي عَدَمُ توافُرِ البيئة القَادِرَةِ على التّعامُل مع مُقْتضيات «الحركة العِلْميّـة - التّقنيّـة»، فلا يَتَوَافَرُ فيهـا الأعْداد الكبيرة من العمالـة المُدَرَّبَةِ والمُهندسين الأَكْفَـاءِ والبَاحِثيـن المَهَرَةِ والمُجْتمـع المُتفاعِلِ بإيجابيّـةٍ مع احْتياجاتِهـا ومُتَطَلَّبَاتِهَا. وهكـذا نجدُ أنّنـا نَصْطَدِمُ بعَقَبَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ تعـودُ في جُذُورِهَا إلى غِيَـابِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة - الثَّقافيّـة» القَـادِرَةِ علـى التّفاعُلِ مع «شُرُوطِ العَصْـرِ» وتوجُّهاتِه العِلْميّـة، وامْتِصاص مفاهيمه وإبْداعاته وأساليبه وآليّاته.

٩-٣) ثالوثٌ في حَاجَةٍ إلى تلاقُح:

عندمـا يَذْكُرُ عبد الله عبد الدائم[١٨] أنّ المُثقّفيـن العرب قد عَجَزُوا عن (تَحْقيق الالْتِحَـامِ العُضْويّ بيـن عطائهم الثّقافيّ وبيـن مَطَالِبِ المُجْتمع العميقـة)، فإنّ أوّل ما يَخْطُرُ على الأذهان - في ضوء طَرْحِنَا في هذا الكِتَاب - ذلك «التَّحَدِّي الأكْبر» المُنْتَصِبُ أمـام «المُجْتمعـات العربيّة»، والمُتَمَثِّلُ في ثَالُوثِ «التّنْميـة - الثّقافة - العِلْم»، ومن نَافِلَةِ القَـول أنّ نُذَكِّـرَ هنـا بما أَكَّدَهُ عبـد الله عبد الدائم بأنّ هـذا لا يَعْنِـي أنْ: (نَفْرِضَ على

المُثقَّفين ألاّ يُجَاوِزُوا الثَّقافة المُلْتَزِمَةَ بهُمُومِ المُجْتمع، وأنْ يُهْمِلُوا ألْوان الثَّقافة المُتَنَوِّعَةِ التي تُغَـذِّي الإحْسَاسَ بالجَمَالِ، وتُغْنِي المَشَاعِرَ الإنْسانيّـة على اخْتلاف أنْواعِها، وتُفَتِّقُ الخيـال الذي هـو شَرْطٌ من شُرُوطِ الإبْداع)، ويُقَرِّرُ عبد الله عبـد الدائم أنّه: (في وَسْعِ الثَّقافـة الرّفيعة، أيّاً كان الموضوع الذي تُعَالِجُهُ، أنْ تُقَـدِّمَ للمُجْتمع زاداً فِكْريّاً وعَاطِفيّاً وجَماليّـاً هو بحَقٍّ من أهمّ مَواقِدِ التَّغْيِيـر الاجْتماعيّ)؛ وهنا نجدُ ضَرورة أنْ نَتَحَدَّثَ عن مـا أَسْمَاهُ عبد الإله بلقزيز « المُثقِّف المُنْدَمِـج» (المُثقّف العُضْويّ)، وهو النَّمُوذَجُ الذي (يَتَحَوَّلُ رأْسماله المَعْرفيّ إلى أداةٍ من أدوات إنْتاج المَصْلَحَةِ وصَوْنِهَا)(١٨).

لقد انْصَبَّ اهْتمامُنا – في هذا الكِتَابِ – على بَلْوَرَةِ ارْتباط «الثَّقافة العِلْميّة» بالجُذُورِ الفِكْريّـة والاجْتماعيّة والتّنْمَويّة لـ«المُجْتمعات المُعَاصِـرَة»، وأهميّة تَأْسيس هذه «الثَّقافة» وتَأْصيلهـا في هـذه المُجْتمعات. ولقد أَبْرَزْنَا – بقَدْرٍ من التّفصيل في هذا الكِتَاب – أنّنا لو نظرنـا إلى أيٍّ من المُصْطلحـات والمفاهيم المُرْتَبِطَةِ بـ«الحيـاة المُعَاصِرَة» لوجدنا أنّ «الثَّقافـة العلميّـة» تقومُ بدَوْرٍ رئيسٍ فـي تَشْكيلِهِ أو تَحْديدِهِ أو تَعْميقِـهِ أو بَلْوَرَتِهِ أو تَفْعِيلِهِ أو تَأْصِيلِـهِ؛ فـكُلُّ «المُصْطلحـات المُعَاصِـرَة» مِثْـل: «الحَدَاثَة» و«الحضـارة» و«العَوْلَمَة» و«مُجْتمع المَعْرِفَة»، و«اقْتِصـاد المَعْرِفَة» و«التَّنْمية المُسْتَدَامَة» و«تَنْويع مَصَادِرِ الدَّخْل»، وغيـرُ ذلك كثير؛ كُلُّها تَلْتَفُّ – بإحكام – حول «مَفْهُوم الثَّقافة العِلْميّة»؛ لتَتَّضِحَ أبْعَادُ هذه المُصْطلحات، ومَرَامِيهَا، وطُرُقُ تَفْعيلِهَا، وسُبُلُ تَأْصيلِهَا.

لقـد حَرَصْتُ – بين طيّات هذا الكِتَابِ – علـى تَسْجيلِ مُقْتضيات «الثَّقافة العِلْميّة»، وهـي تتقاطـعُ مع كُلِّ شرائِح المُجْتمع، وتتفاعـلُ مع مُؤَسَّسَاتِهِ كَافّـةً، وتُرْسِي الأُسُسَ لأيِّ تحـرُّكٍ جَادٍّ نحو تَحْقيقِ «النَّهْضَة المَنْشُودَة»؛ ممّا يَجْعَلُ من هذه «الثَّقافة» ضَرورةً لازِمَةً فـي «الاعْتِبارات التّنْمَويّة»، ورَكيزَةً حيويّةً فـي «المُراجَعَاتِ الفِكْريّة»، وقضيّةً حَاسِمَةً في «التَّفاعُـلاتِ الاجْتماعيّـة». ولذا فـإنّ دَوْرَ «الثَّقافـة العِلْميّة» في «صِنَاعَـةِ المُسْتَقْبَلِ» في «المُجْتمعـات العربيّة» أَمْـرٌ قَمِينٌ بالتَّمَعُّـنِ والتَّمْحيصِ والتَّأْصيلِ والجُهْـدِ الدَّؤوب حتى تَسْتَقِرّ القَنَاعَاتُ لدى صَانِعِيْ القَرَارِ في مُخْتلف الهيئات والمُؤَسَّسَات والقِطَاعَاتِ – على الصَّعيدَيْنِ الخاصّ والعامّ – بأنّ القضيّةَ ليستْ قضيّةً اخْتياريّةً يَسْمَحُ لنا الزَّمنُ بقَبُولِهَا

أو رَفْضِهَـا، ولكنّهـا في الوَاقِعِ قضيّةٌ مصيريّةٌ؛ ففي مَعْمَعَـةِ التَّنَافُسِ والاهْتمام المُتنامي عَالَميّـاً بتَأْسيسِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وهـو النِّتَاجُ الطَّبيعيّ والمُحَـرِّكُ الحقيقيّ لـ«تفاعُلٍ تَنْمَـوِيٍّ» أصيـل، تُصْبِـحُ الحاجةُ مُلِحَّةً إلـى إشَاعَةِ «ثقافـة المَعْرِفَة» فـي المُجْتمع؛ وفي «الأَلْفيّـة الثّالثة» يَنْبَغـي أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ «ثقافة المَعْرِفَةِ» هـي – في المقام الأوَّل – «ثقافةُ العلوم والتِّقْنية».

٩-٣-١) نَحْوَ «التَّخصيب الفِكْرِيّ»:

مـن المُهِـمّ أنْ تُدْرِكَ «المُجْتمعاتُ العربيّـةُ» أنّ «الإبْدَاعَ العِلْميّ» ليسَ وَمْضَةَ إلْهَامٍ اصْطَدَمَـتْ بالعَقْـلِ في «وادي عَبْقَر»، وليسَ تداعياتٍ تَلاقَحَتْ في جَلَسَـاتِ أُنْسٍ وسَمَر، وليسَ جَعْجَعَةً تَلاطَمَتْ في مُزَايَدَاتٍ بين البشر، ولكنّه أمْـرٌ يَخْتَنِقُ في مِثْلِ تلك الأجْواء ويَذْبُـل، ولا يَنْمُو ويَزْدَهِرُ إلاّ في بَوْتَقَةٍ خاصّةٍ مـن الخيال والانْضِبَاطِ والمُثَابَرَة. من هذه الطّبيعـة، ذات الخصائِـص الفريدة، كانتْ تحدِّياتُ «العمل العِلْمـيّ» مُخْتلفةً عن غيرها من الأعْمال والتَّوجُّهات، وكان القَادِرُونَ عليها والمُتَمَكِّنُونَ منها قِلَّةً نَادِرَةً في المُجْتمعات، وتَـزْدَادُ أعْدَادُهُمْ فـي «المُجْتمعـات المُتَقَدِّمَة» التـي اسْتَوْعَبَتْ تلك الطّبيعـة الخاصّة، وثَابَرَتْ على تَحْقيقِ مُوَاصَفَاتِهَا، وتَعْميقِ مُتَطَلَّبَاتِهَا، وتَأْصيلِ عَنَاصِرِهَا.

إنّ «الإبْـدَاعَ العِلْميّ» قَفْزَةٌ في «عَالَمِ المَجْهُول» تَسْتَنِـدُ أساساً إلى تَرَاكُمَاتِ «ثقافةٍ مُسَانِـدَةٍ»، تَهْتَـمُّ بالتّأسيسِ العِلْمـيّ الصّحيح، وتَنْميـةِ الحِسِّ الفَطِن، وتَطْويـرِ المُثَابَرَةِ المُتواصِلَـة؛ فتُوقِـظُ المَواهِبَ الكَامِنَة، وتَدْفَعُ بالعمل الإنْتَاجـيّ، وتَشْحَذُ طاقات الإنْسان وفِكْـرَهُ لاخْتِـرَاقِ عَوالِمِ جديدةٍ وآفـاقٍ رَحْبَة. وإذا أخذنا – على سبيـل المِثال – ما أَطْلَقَ عليه آرثر كوستلر (Arthur Koestler)[١٠٨] اسْم «آليّات الرَّبْطِ الثُّنَائِيّ» (Bisociative Mechanisms) التي تَنْتُجُ عنها إبْداعاتٌ وإنْجازاتٌ، فإنّنا نجدُ أنّ المَوهُوبَ لا يَنْطَلِقُ من فَـرَاغ، ولكن ما يُقَدِّمُهُ من إنْتَـاجٍ مُتَمَيِّزٍ هو نِتَاجٌ طبيعيٌّ لما أُطْلَـقَ عليه آرثر كوستلر[١٠٨] اسم «عمليّة التَّخْصيب المُتَقَاطِع» (Process Of Cross – Fertilization) حيث تتداخلُ أنْمَـاطٌ فِكْرِيّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وتتقاطعُ أُطُرٌ عِلْميّةٌ مُخْتلفةٌ، لتَنْدَمِجَ في ذِهْنِ المَوهُوب، وتتفاعلَ

فـي كِيانِـه، ليَخْلُصَ – عبْر تلـك العمليّة – إلى أبْعَـادٍ جديدةٍ لم تكنْ جُـزْءاً من الأنْمَاطِ الأوليّة التي اعْتَمَدَ عليها، وبَدَأَ منها.

ولكـن كيف تَتَحقّقُ شُرُوطُ عمليّة «التَّخْصيب الفِكْريّ» بأنْمَاطِهَا المُتَعَدِّدَةِ وأشْكَالِهَا المُخْتلفـة؟. إنّ الذيـن يَعْتَقِـدُونَ أنّ بإمْكانهـم إعادة «اخْتِـرَاعِ العَجَلَة»، يُهْـدِرُونَ وَقْتهم وجُهْدهم، والذين يُراهِنُون على بِنَاء كِيانات عِلْميّةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى فَرَاغ، يَلْهَثُونَ وراء سَرَابٍ فـي صَحْراء قَاحِلَةٍ؛ فالتَّجْرِبَـةُ الإنْسانيّةُ، وطبيعةُ العَقْلِ البشـريّ، تُؤكِّدانِ ضَرورة وجود «الوَسَـطِ المُلائِـم»؛ لكـي تَسْتَقِرَّ عمليّـةُ «التَّخْصيب الفِكْـريّ» في النّسيج العـامّ للبيئة، وتَنْدَفِـعَ – بعُنْفُوانٍ تِلْقَائيٍّ – فـي مُجْتمعاتٍ قَابِلَةٍ للتّفاعُلِ معهـا، والانْصِهَارِ في بَوْتَقَتِهَا؛ ومِـن الوَاضِحِ أنّه في زمن «العلـوم والتّقْنية» فإنّ «الوَسَطَ المُلائِمَ» هـو وَسَطٌ تَسْتَقِرُّ في قَلْبِهِ «الثّقافةُ العِلْميّةُ» بصفتها مُرْتَكَزاً أساساً ومِحْوَراً حيويّاً.

٩-٤) نَحْوَ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية»:

إنّ الدَّعْـوَةَ قَائِمَـةٌ فـي «المُجْتمعـات العربيّة» – علـى مُخْتلف الأصْعِـدَةِ السّياسيّة والتّعْليميّـة والثّقافيّة والإعْلاميّـة – لحَضِّ الأُمّة على اسْتِيعاب عناصِـر «الحركة العِلْميّة – التّقنيّـة – المَعْلُوماتيّة»، ولكنّها – فـي نهاية المطاف – دَعْوَةٌ غير قَادِرَةٍ على أنْ تُحْدِثَ «النَّقْلَـةَ» المَطْلُوبَةَ على الصّعيدِ الإنْتاجيّ والعمليّ، بَلْ لعلّها تُسْهِمُ أكْثر في إحْبَاطِ الأُمّة، وتَفَاقُـم «الفَجْوَة»، عبْر الاعْتقاد بـأنّ الإنْشائيّات وَحْدَها تَكْفِي، أو أنّ النّواحي التّنفيذيّة، التـي ترى في «العلوم والتّقْنية» مُجَرَّدَ أدواتٍ ومُعِـدَّاتٍ وتَجْهيزاتٍ ووسائل، كفيلةٌ بتَحْقيقِ المُهِمَّة. ومن الوَاضِحِ أنّ فَشَلَ «النَّمَاذِج التّنْمَويّة» التي تَمَّ تبنِّيها في «المُجْتمعات العربيّة» – عبْـر قَرْنَيْـنِ من المحاولاتِ المُتَعَثِّرَةِ لتَحْقيقِ «النّهْضَة» – تقـودُ بالضّرورة إلى تَكْريسِ أهميّـة السَّعْـي نحو تَطْويرِ «نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْمية» يكون قَـادِراً – وفْق مَقُولَةِ نادر فرجاني – علـى أنْ: (يتفاعل جَدَليّاً مع فَهْمِ التّغْييـر المُجْتمعيّ في الوطن العربيّ من ناحيةٍ، ومع العمل على التّغْيير من ناحيةٍ أُخْرى)(١١).

لـم تُفْلِحْ – عبْر قُرُونٍ – جُهُودُ المُفكّريـن، وأفْعَالُ السّياسيين، وصَرْخَاتُ الثّوريين، وكاريزما الزُّعمـاء، وتَخْطِيطُ الاقْتصاديين، وحَمَاسِيَّاتُ الخُطَبَـاء، وبَلاغَةُ الدُّعَاة، في إحْـدَاثِ تلك «النّقْلَة النَّوْعيّة» في حياة «المُجْتمعات العربيّة»، وإخْرَاجِهَا من نَفَقِ الهزيمة والتَّخلُّـفِ والتَّشَـرْذُمِ والفِتَـنِ؛ وهذا يَسْتَدْعِـي – بالضّرورة – مُرَاجَعَـةَ كُلِّ تلك المراحِل لاسْتِكْشَـافِ «العُنْصُـر الغَائِـب» في كُلِّ تلـك الطُّرُوحـات والبرامِج والمَشْرُوعَـات. إنّنا لـن نَجْهَـدَ كثيراً لنرى أنّ هنـاك إخْفَاقاً ثقافيّاً مُرَوِّعَـاً يَتَحمّلُ المَسْؤوليـةَ الأكْبر في كُلِّ الإخْفَاقَـاتِ المُتَكَرِّرَةِ في مُحاولات «النّهْضَـة العربيّة»، ونَتّفِقُ هنا مع نادر فرجاني في ما خَلَصَ إليه بـأنّ: (تَطْوير نَمُوذَجٍ عربيٍّ للتّنْميـة مُهِمّةٌ شَاقّةٌ، طويلـةٌ، وتَرَاكُميّة) [١١]، إلاّ أنّ هـذا – بالضّـرورة – يَفْرِضُ إرْسَاءَ مَحَـاوِرَ رئيسةٍ، تَلْتَفُّ حولها هـذه المُهِمَّةُ الشّاقَّة، وتَسْتَنِـدُ إليها فـي رِحْلَتِهَا الطَّويلة، وتَسْتَوْعِبُ مُقْتضياتِها العمليّـة ومُتَطَلَّبَاتِهَا التَّرَاكُميّة. إنِّـي أَزْعُمُ في هذا الكِتَاب – عبْر التّحْليـل والتّدْقيق في وَاقِعِ «التّنْمية» وتجاربها، وطبيعةِ «الثَّقافة» وتَرْكيبتِهـا – أنّ «إشْكَاليّةَ التّنْمية»، وإخْفَاقَاتِ برامِج «التَّخْطيط التّنْمَويّ»، هي – فـي الأسـاس – مُشْكَلاتٌ ثقافيّةٌ، وليستْ مُشْكَلاتٍ اقْتصاديّةً أو تقنيّةً؛ فلا يُمْكِنُ بحالٍ أنْ تَتَحقّقَ طُمُوحَاتُ «الإصْلاح»، وأهْدَافُ «التّنْمية»، وتَطَلُّعَاتُ «النّهْضَة»، وأشْوَاقُ «الرّبيع العربـيّ»، دون تَحَوُّلٍ جِـذْريٍّ في القِيَم، وتَطَـوُّرٍ عَصْرِيٍّ في المفاهيـم، يَنْقُلُهَا من كَوْنِهَا مُعيقَـةً لـ«برامِج الإصْـلاح» و«خُطَطِ التّنْمية»، إلـى كَوْنِهَا مُسَاعِدَةً ومُحَفِّـزَةً ودَافِعَةً إلى تَحْقيقِ تلك البرامج، وقَطْفِ ثِمَارِ تلك الخُطَط.

مـن المفاهيـم التـي أَصْبَحَتْ في حُكْـم المُسَلَّمَـاتِ فـي «الدِّراسـات التّنْمَويّة» أنّ («التّنْميـة» ليستْ ظَاهِـرَةً اقْتصاديّةً صِرْفَـاً) [١١]، وأنّ نَجَاحَ «التّنْميـة» لا يُمْكِنُ التَّعْبيرُ عنـه فقط بالمُعَدَّلِ السَّنويّ لنُموّ «النّاتج القوميّ الإجْماليّ»، ممّا يَعْني، كما يرى إبراهيم العيسـوي[١١]، أنّ: («مَفْهُومُ التّنْمية الحديث» أوسع مـن أنْ يُقَاسَ بمُتَغيِّرٍ وَاحِدٍ، حتّى إذا كان مُتَغيِّراً وَاحِداً يُشْتَقُّ من مُتَغيِّرَاتٍ عديدةٍ، وأنّ الأَمْرَ يَتَطَلَّبُ صِياغَةَ مَجْمُوعَةٍ مُتكامِلَةٍ من المُؤشِّرَات تُغَطِّي مُخْتلـف أبْعَادِ العمليّة التّنْمَويّة)، ويُضِيفُ ليقول: (وفي تَقْديري أنّ الوَقْتَ مُلائِمٌ جِدّاً لبَدْءِ جُهْدٍ مُكَثَّفٍ من جَانِبِ الأقْطار العربيّة في مجال صِياغَةِ مُؤشِّرَاتٍ

لـ«التّنْميــة العربيّــة»، انْطِلاقاً مــن فَهْم خاصٍّ لـ«التّنْمية» في ظُرُوفِ الوطــن العربيّ، لا انْطِلاقــاً من المفاهيــم التي تَعْمَلُ الــدُّوَلُ الرّأْسماليّةُ المُسَيْطِرَةُ علــى تَرْويجِهَا في بلاد العَالَمِ الثّالث). وتُبَيِّنُ لنا هذه الرُّؤية أنّ من أبْرز أسْبَابِ «الإخْفَاقَاتِ التَّنْمَويّة» هو الفَشَلُ في إدْراك حقيقةٍ جوهريّةٍ، وهي - وفْق علي خليفة الكواري[11] - تُوجَزُ في أنّ: («التّنْمية الاقْتصاديّة - الاجْتماعيّة» الشّامِلَة عمليّةٌ مُجْتمعيّةٌ واعِيَةٌ ومُوَجَّهَةٌ لإيجادِ تَحَوُّلاتٍ هيكليّةٍ تُؤدِّي إلى تَكْوينِ قَاعِدَةٍ وإطْلاقِ طاقةٍ إنْتاجيّةٍ ذاتيّة)؛ وبالتّالي يكون: (النُّموُّ الاقْتصاديّ جُـزْءٌ من مُكَوِّنَـاتِ «عمليّــة التّنْمية»، يَسْبِقُــهُ الكثير من التَّوَجُّــهِ والاسْتِعْـدَادِ المُجْتمعيّ والتَّحَــوُّلاتِ الهيكليّــة، ويُصاحِبُهُ تَوَجُّهٌ اجْتماعيٌّ يَحْرِصُ على وجـودِ عَلاقَاتٍ تُؤَكِّدُ عَدَالَةَ توزيع ثمرات «التّنْمية»، وتَرْبُطُهَا عُضْويّاً بعمليّة التَّطَوُّرِ الحضاريّ).

وفي إطَارِ ذلك «النَّمُوذَجِ التّنْمَويّ» المَنْشُودِ يَنْبَغِي الاهْتِمَامُ - على مُسْتوىً قوميٍّ - بتَأْسيس كِياناتٍ - بجميع أنْمَاطِهَا واهْتماماتِها - مُتفاعِلَةٍ مع «الحركة العِلْميّة»، ومُهْتَمَّةٍ بـ«التّوعية العِلْميّة»، ولا يُمْكِنُ أنْ نُهْمِلَ هنا الأدْوار الأهليّة والمَدَنيّة والخيريّة والرِّبْحيّة في هذا المجال، كما يجب أنْ نُقِرّ بأنّه إذا كانتْ رَغْبَةُ «القِطَاع الخاصّ» في «توطين التّقْنية» و«تَطْوير المهارات الوطنيّة» رَغْبَةً صَادِقَةً، فإنّ هـذا يَتَطَلَّبُ الإسْهَامَ الجَادَّ والمُتَوَاصِلَ في تَأْسيسِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّة - الثَّقافيّــة» القَادِرَةِ على احْتِضان قَاعِدَةٍ وَاسِعَةٍ من المُواطِنين، والدَّفْعِ بهم إلى مجالات التّقْنية والإنْتاجيّة والتّدْريب.

بطبيعــة الحــال، لا يَجُـوزُ النَّظَـرُ إلــى «عمليّــات التّنْمية» - فــي مُخْتلــف أشْكَالِهَا ومَسَارَاتِهَــا - على أنّها عمليّاتٌ مُجَزَّأَةٌ؛ فكُلُّ الجوانــب التّطْبيقيّة والتّخْطيطيّة والثّقافيّة والاجْتماعيّــة والسّياسيّــة والاقْتصاديّة مُتَدَاخِلَــةٌ ومُتَرَابِطَــةٌ ومُتَكَامِلَةٌ، وهذا مــا يُؤَكِّدُهُ يوســف صايغ بقولــه إنّ: («عمليّة التّنْميــة» تَتَطَلَّبُ تداخُل عَدَدٍ مــن العَوامِلِ الاقْتصاديّة والتِّكْنولوجيّــة والاجْتماعيّــة والثّقافيّة والسّياسيّة ضمْن آليّةٍ مُعَقَّــدَة)[11]؛ إلاّ أنّ «العَامِلَ الثَّقافــيّ» - كما يَتَّضِــحُ من فُصُول هذا الكِتَــاب - يَبْقَى صَاحِبَ التّأْثيــر الأقْوى، والأكْثر فَاعِليّــةً، لقُدْرَتِهِ علــى الانْسياب إلى دَاخِلِ كُلّ تلــك المَنْظُومَاتِ، ودَعْمِهِ لهــا، وتَخْصيبِهِ لتفاعُلاتِها. ولذا فإنّ «المُؤشِّرَات الثّقافيّة» يجبُ أنْ تَأْخُذَ مَوْقِعَهَا المِحْوَرِيّ في «مَنْظُومَةِ

التّنْميــة»، وعلى رأْس هذه المُؤشِّرَاتِ يَنْبَغِي أنْ يكــون «مُؤشِّرُ الثَّقافة العِلْميّة»؛ فـ«الثَّقافةُ العِلْميــةُ» - فــي نهاية المطاف - هــي القَادِرَةُ علــى «عَقْلَنَةِ الثّقافة العربيّــة»، وإخْراجِهَا مــن نَفَقِ الكلاميّات والإنْشائيّات وعَوالِمِ التّنْظير، إلــى وَاقِعِ التّنْفيذ، ودِراسةِ التّفاصِيل، ووَضْــعِ المعايير الإنْتاجيّــة، وتَقْويم النَّتائج، وتَحْليــلِ المُؤشِّرَاتِ العمليّــة، وإرْسَاءِ أُصُولِ «التّفْكير العِلْميّ».

يَنْبَغِــي لنــا أنْ نَتَوَقَّفَ هنــا أمام تلك «الإشْكَاليّــة» التي يُطْلِقُ عليهــا علي أومليل[٣٧] اسْــم «الزَّمَــنُ الإصْلاحيُّ» لتزيد مــن مَواجِعِنَا عندما يقــول: (إنّ مُشْكِلَ الــدُّول النَّامية هــو «الزَّمَنُ الإصْلاحيُّ» وكيف يُمْكِنُ اخْتزالُه، أيْ كيــف يُمْكِنُ تَدارُكُ الهُوّةِ التي تَفْصِلُهَا عــن العَالَمِ المُتقدِّم؟، والحال أنّ هذا الأخير تَطَــوَّرَتْ مُجْتمعاته بحركةٍ ذاتيّةٍ وفي زمانٍ غيــر مَضْغُوطٍ، ولم يكنْ أمامها مُجْتمعاتٌ جِدُّ مُتَقَدِّمَةٌ تَفْصِلُهَا عنها هُوّةٌ تاريخيّةٌ عميقةٌ تَسْتَعْجِــلُ اللّحَاق بها في زمنٍ مُخْتَزَل). وأمّا السُّؤالُ الــذي يَتَرَتَّبُ على هذه «الإشْكَاليّة»، فــإنّ أومليــل يَطْرَحُهُ على النّحْــو التّالي: (كيف يكــونُ «الزَّمَنُ الإصْلاحــيُّ» تَراكُمِيّاً على مُسْتوياتٍ مُتَكَامِلَــةٍ ومُتَدَامِجَةٍ: تَرَاكُمٌ اقْتصاديٌّ يَدْمُجُ قَاعِــدَةً اجْتماعيّةً وَاسِعَةً، وتَرَاكُمٌ مَعْرفــيٌّ لاسْتيعــاب المَعْرِفَــةِ المُتَقَدِّمَة، وتَرَاكُــمٌ ديموقراطيٌّ تُصْبِحُ فيــه الدّيموقراطيّة كثقافــةٍ وآليّــاتٍ ومُؤسَّسَــاتٍ رَاسِخَةً فــي العَقْليّةِ والمُمَارَسَــةِ رُسُوخاً لا رَجْعَــةَ فيه؟ تلك هي المَسْأَلَة).

أمّا تلك القضيّةُ - التي يرى أومليل أنّها «المَسْأَلَةُ الأساسُ» -، فإنّ أنْجَعَ الطُّرُق إلى حَلِّهَــا وتَفْكيكِها ودَمْجِهَــا وإحْدَاثِ تراكُماتِها، فيَكْمُنُ -كما وجدنا في ثنايا هذا الكِتاب - فــي «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَتَمَثَّلُ الطّبيعــة الدّيناميكيّة والإنْتاجيّة لـ«حركة العلوم والتّقْنية». وأمّا «قضيّــةُ الدِّيموقراطيّة» فهي نِتَاجٌ طبيعيٌّ لمُنَظَّمَاتِ «المُجْتمع المَدَنيّ» المُطالِبَةِ بحُقُوقِهَا ومُشَارَكتِهَــا، والفَارِضَةِ وجودها على «التَّرْكيبة الاقْتصاديّة والاجْتماعيّة والسّياسيّة» عبْر فاعِليّتِهــا ورِيادتِها فكمــا يقولُ أومليل: (تُسَاهِــمُ تَنْظيماتُ «المُجْتمــع المَدَنيّ» في تَنْمية الحركة الاجْتماعيّة كما في دَمَقْرَطَةِ المُجْتمع)[٣٧]. وبالتَأَمُّلِ الموضوعيّ، نجدُ أنّ «قضيّة الدِّيموقراطيّــة» تَرْتَبِطُ بما تُنْتِجُهُ «الحركةُ العِلْميّــةُ - التّقْنيّةُ» من تخصُّصاتٍ وتفرُّعاتٍ

ومهَـنٍ وهيئـاتٍ ومُنَظَّمَـاتٍ – حَامِلَةً معهـا ثقافتها واسْتقلاليّتهـا وشُرُوطَهَـا وإفْرَازَاتِهَا وضُغُوطَهَا –؛ لتتفاعلَ «قضيّةُ الدِّيموقراطيّة» وتَتَبَلْوَرَ دَاخِلَ «الدّولة الحديثة».

٩-٤-١) «مُجْتمعُ المَعْرفة» و«قضيّةُ التَّرْجَمَة»:

فـي «النَّمُوذَجِ العربـيّ للتَّنْمية»، يجب أنّ تَحْتَلّ قضيّةُ «العلـوم والتّقْنية» الأولويّة في التّفاعُـلات السّياسيّة والثّقافيّة والمُجْتمعيّـة؛ لتُؤسِّسَ – بطبيعتِها وبمُكَوِّنَاتِهَا – اقْتصاداً حيويّـاً، وأَمْنـاً وطنيّاً، وقُـدْرَةً على «التَّفَاعُلِ الإيجابـيّ» مع هَجْمَةِ «العَوْلَمَـةِ» وتَشْكيلاتِها المُخْتلفـة. وفي هـذا الإطَارِ، تَبْـرُزُ أهميّةُ «اللّغَـة»، ودَوْرُهَا الحَاسِمُ، فـي تَعْميقِ «الهُويّة الثَّقافيّـة»، وتَأْصيلِ «الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» فـي «التَّفاعُلات المُجْتمعيّة» على مُخْتلف المُسْتويـات، فكما يقولُ محيي الدين صابر: (اللّغَةُ هـي المَدْخَلُ المَشْرُوعُ إلى الحضارة المُعَاصِـرَةِ التـي بابها العِلْمُ والمَعْرِفَـة. ولتَحْقيقِ ذلك، فإنّ اللّغَـة العربيّة يجب أنْ تكون لُغَـةَ عِلْمٍ عربيّةٍ، وأنّ الطّريـق إلى هذا هو تَحْديثُهَا، ودَعْمُ طاقاتِها التّعْبيريّة، للاسْتِجَابَةِ لمُتَطلَّبَـاتِ العَصْـر، في إطار تَعْريب مُقَوِّمَـاتِ الحضارة المُعَاصِـرَةِ ومَظَاهِرِهَا بتَعْظيمِ القُدْرَة العربيّة الاجْتماعيّة)[١٨].

لقـد حَرَصْنَا – في الفَصْلِ الثّامن – على تَأْصيـل مَوْقِعِ «اللّغَةِ» في «الحَرَاكِ العِلْميّ – التّنْمَـويّ» وتعْزيزه، وتَحَدَّثْنَا – ببعْضِ الإسْهاب – عـن «الشَّرْطِ اللّغَويّ» لقيام «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وإذا كان الاسْتِشْهَادُ بأقْوَالِ المُثقّفين العرب، لدَعْم قضيّة «التّرْجَمَة والتَّعْريب»، أَمْـراً قد يـراه بعْضهم مَجْرُوحاً، فلعلّه مـن المُنَاسِبِ الاسْتِشْهَادَ بهيئَـةٍ عَالَميّةٍ مُحَايدَةٍ، وهـي «مُنَظَّمَـةُ اليونسكو» حيـث أكَّدَ تَقْريرُهَـا العَالَميّ[٨٣] – الصَّادر فـي عام ٢٠٠٥م – أنّ «مُجْتمعـات المَعْرِفَـة» هي تلك المُجْتمعات التـي (تَرْتَكِزُ على إدْمَـاج ومُشَارَكَةِ العَدَدِ الأكْبَـر)، وبالتّالـي يَنْبَغِي ليس فقط (تَأْمين نَفَـاذٍ شَامِلٍ للمَعْلُومات، بَـلْ أيضاً مُشَارَكَة الجميـع في «مُجْتمعات المَعْرِفَة»)؛ وهذا يَفْرِضُ على «مُجْتمـع المَعْرِفَةِ» أنْ يكون مُتَمَكِّناً مـن التَّفاعُلِ بـ«اللّغَة الأُمّ» مع جَوانِـبِ المَعْرِفَةِ المُخْتلفة ليَتَمَكَّنَ مـن (التَّكَيُّف من وِجْهَةِ نَظَرٍ تقنيّةٍ وإدْراكيّةٍ وثقافيّةٍ مع حاجات مُسْتَخْدِميها الفِعْليّين والمحلّيّين).

لقد تنادى بعضهم، في ظلِّ هَجْمَةٍ عَوْلَميّةٍ ضَارِيةٍ، إلى أنّ الطّريق الأَسْرع نحو «العِلْم والتّقْنية» هو عبْر «تدْريس العلوم الأساسيّة والتّطْبيقيّة» بلُغَاتٍ أجنبيّةٍ، ورأى آخَرون أنّ مدارس تَتَأَصّلُ فيها الهُويّاتُ الأجْنبيةُ عبْر التّدْريسِ بلُغَاتِهَا هي المَدْخَلُ الفعّالُ إلى «مُجْتمع المَعْرفة»، وما دَرَوا - عفا الله عنهم - أنّ ذلك هو الطّريقُ الأكيدُ لانْدِثَارِ الاثْنَيْنِ معاً: «المُجْتمعُ» بما يُمَثِّلُهُ من هُويّةٍ وتُرَاثٍ وتَمَاسُكٍ، و«المَعْرِفَةُ» بما تُمَثِّلُهُ من تَفْكيرٍ واسْتيعابٍ وعُلومٍ، وهذا ما يُعَزِّزُهُ «تَقْريرُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو» في أكْثر من مقام، مُؤكِّداً أهميّة العِنَايَةِ باللّغات الأَصْليّة للسُّكَّانِ ودَمْجِهَا في «الحركة المَعْرفيّة»، ومُحَذِّراً من مَغَبَّةِ إهْمَالِهَا؛ لأنّ اللّغَاتِ الأَصْليّة هي: (أدواتٌ مَعْرفيّةٌ، ونَوَاقِلُ ثقافيّةٌ، وبيئةٌ تَكْوينيّةٌ لـ«مُجْتمعات المَعْرِفَة») (٨٣). من المُهِمّ الإشارة هنا إلى أنّ «تَقْرير مُنَظَّمَةِ اليونسكو» (٨٣) يَهْتَمُّ بضَرورة إحْياء اللّغات المُهَدَّدَةِ بالانْقراض، ولُغَات الأقليّات وكثيرٌ منها لُغَاتٌ مَحْكيَّةٌ (ليستْ مَكْتُوبَة)، ويرى أهميّة تَفْعيلها وحِمَايَتِهَا من الذّوبانِ في طُوفانِ «اللّغَاتِ النّاقِلَةِ للمَعْرِفَة»، ويُؤكِّدُ دَوْرَهَا الحيويّ في تَأْسيسِ «مُجْتمعات المَعْرِفَة» وتَحْقيقِ أَغْرَاضِهَا لكي لا يكون هناك (مُسْتَبْعَدُونَ في «مُجْتمعات المَعْرِفَة») (٨٣). فإذا كان هذا هو الحالُ مع لُغَاتٍ مُهَدَّدَةٍ، أو مُوشِكَةٍ على الانْقراض، فما المَوْقِفُ السّديدُ إزاء «اللّغة العربيّة»، وهي لُغَةٌ تَحْتَلُّ المَوْقِعَ السّادس في «الأُمم المُتّحدة»، وهي «اللّغَةُ الأُمُّ» لما يَرْبُو على ثلاثمائة مليون نسمةٍ يَقْطُنُونَ في مَنْطِقَةٍ وَاسِعَةٍ من أهمّ مناطقِ العَالَم، ولهذه اللّغَة جُذُورُهَا التّاريخيّة والدّينيّة والوِجْدانيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة، وتُعْتَبَرُ رَمْزاً لما يفوقُ المليار من المُسْلِمين، وهي مَدْخَلُهُمْ لعلوم دينِهم، والتّفقُّهِ في عقيدتِهم؟.

في إطار كُلّ تلك التّحدّيات - للتّعامُلِ مع «إشْكَاليّةِ التّنْمية» -، يَبْدُو أنّه قد حان الوَقْتُ لأنْ يَنْتَقِلَ زِمَامُ المُبَادَرَاتِ الإعْلاميّة والثّقافيّة والمُجْتمعيّة، وإدارةِ «التّنْمية» وتَخْطيطها، إلى أيدي القَادِرينَ على فَهْم «شُرُوطِ التّنْمية» ومُقْتضياتِها، واسْتيعابِ «معاني النَّهْضَةِ» ومُنْطلقاتِها، في إطَارٍ من «التّوَافُقِ التّنْمَويّ» بين «الخُصُوصيّةِ» و«العَوْلَمَةِ»، وإدْراكٍ عميقٍ لأهميّة «الفِعْلِ التّغْييريّ» لـ«الثّقافة العِلْميّة» على مُخْتلف الأصْعِدَةِ عبْر غَرْسِ «الفِكْرِ العِلْميّ» في مَنْهَجيَّتِهَا، واسْتيعابِ حقائِق «العَصْرِ» في برامجِها وفعّاليّاتِها. لقد

أَوضحنــا - في سِيَاقِ هذا الكِتَــاب - أنّ «مُجْتمع المَعْرفَة» ليس «مُجْتمعــاً نُخْبَويّاً» تمْتَلِكُ فيــه «النُّخْبَةُ» أدواتِ العَصْرِ وطُرُقَ التّعامُلِ معه، وتُخَاطِبُــهُ بلُغَتِه المُهَيْمِنَةِ العَالَميّةِ - أيّاً كانَتْ -، ولكنّه «مُجْتمعٌ شَامِلٌ» قَادِرٌ على أنْ يتفاعل - بلُغَتِه وثقافتِهِ وهُويّتِه - مع مُعْطياتِ «العَصْــرِ»، ومُسْتَجِــدَّاتِ «المَعْرفَةِ»، بحيث تُشَارِكُ جميع الشَّرَائِــح، ومُخْتلف الفِئَاتِ، في اسْتيعــابِ «المَعْرِفَةِ» وإنْتاجِها. إنّ هذه الحقيقة تَفْتَحُ على فضاءاتٍ وَاسِعَةٍ قارِعَةً الجَرَسَ - بقُــوّةٍ وعُنْفُوانٍ - أمام وَسَائِــلِ الإعْلام، ورجَالِ التَّعْليم، وأكاديميّــي البحوث، وأطْيَافِ «المُجْتمــع المَدَنِيّ»، وقطاعات الخِدْمَاتِ والتّدْريب والإنْتَــاجِ؛ ليتولّى كُلُّ طَرَفٍ مَسْؤوليّته لتوليد «الإرادة الجماعيّة» الوَاعية القَادِرَةِ على قَطْعِ الأشْواط العمليّة على طريق «مُجْتمع المَعْرفَة»؛ وهذا ما يُؤكِّدُهُ «تَقْرِيرُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو»، حيث يقول: (لن يكون بِنَاءُ «مُجْتمعات المَعْرِفَــة» عمليّــةً مُسْتَدامَــةً إلاّ إذا سَمَحَتْ الابْتكارات التِّكْنولوجيّــة بتَجْديدِ ما دعاه بول ريكــور - عــن حَقٍّ - بـ«مُعْجِــزَةِ التَّرْجَمَةِ» التي تَشْهَدُ على القُدْرَةِ التــي سيتمتَّعُ بها دائماً الإنْسانُ على خَلْقِ مَعْنىً مُشْتَرَكٍ من الاخْتلافات، فـ«التَّرْجَمَةُ» باعْتبارها تُوَفِّقُ بين الكُلِّيِّ والمُتَنَــوِّعِ، تَسْمَــحُ بصَوْغِ أفْــكَارٍ مُشْتَرَكَةٍ، تُحَافِــظُ على تَنَوُّعِ كُلِّ فَــرْدٍ وتُثْرِيه)[٨٣]. ولا بُدَّ - فــي هــذا السِّياق - أنْ نُسَجِّلَ أنّ «تَقْرير مُنَظَّمَــة اليونسكو» يُعَزِّزُ - في أكْثر من مقامٍ - دَوْرَ «التَّرْجَمَــةِ» الجوهريّ في حياة «المُجْتمعــات المُعَاصِرَةِ»، فيُؤَكِّدُ أنّ: («التَّرْجَمَةُ» هي الوسيــطُ بامْتيازٍ بين التَّنَوُّعِ الثّقافــيّ وعَالَمِيّةِ المَعْرِفَة، وبهذا المَعْنَى فإنّ الخَطَّ الأساس هــو أنّه لا تُوجَــدُ لُغَةٌ كَوْنيّــةٌ، ولكن فقط مُبَادَلات بيــن المَوْرُوثَاتِ الثّقافيّــة والرّوحيّة في البَحْــثِ عن لُغَــةٍ مُشْتَرَكَةٍ، ومن هذا المُنْطلــق، فإنّ «مُجْتمعات المَعْرِفَــة» يَنْبَغِي أنْ تكون «مُجْتمعات التَّرْجَمَة»)[٨٣].

كُلُّ ما سَبَقَ يَجْعَــلُ من قضيّةِ «تَعْريب العلوم» ومَشْرُوعَاتِ «التَّرْجَمَةِ والنَّشْرِ العِلْميّ» أساساً حَتْمِيّاً في «النَّمُوذَجِ العربيّ للتّنْمية»؛ وأمّا في سِيَاقِ الوَاقِعِ العربيّ اليوم وما يَشْهَدُهُ مــن تَرَاجُعَاتٍ وانْتِهَاكَاتٍ وإحْبَاطَاتٍ، فإنّنا نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّه إذا كان بول ريكور[٨٣] قد قَصَدَ بـ«مُعْجِزَةِ التَّرْجَمَةِ» ما يُولَدُ من رَحِمِهَا من مُنْجَزَاتٍ وقَفَزَاتٍ، فإنّ ذلك الوَصْفَ في وَاقِعِنَا العربيّ اليوم يَعْنِي أنّ «وِلادَةَ التَّرْجَمَةِ» ستكون هي - في حَدِّ ذاتها - «المُعْجِزَة»!.

٩-٤-٢) رَجْعُ الصَّدَى:

لقد وجدنا - في سِيَاقِ هذا الكِتاب - كيف يَعْبُرُ المُثقَّفون والمُفكِّرون العرب بخُيُولِهِمْ، الإنْشائيّ منها والتَّأمُّليّ والوَعْظيّ، على مساحاتٍ شَاسِعَةٍ من المَخَاضِ الفِكْريِّ في مُحاولاتٍ تَسْتَنْسِخُ نفسها وتَجْتَرُّ إخْفَاقَاتِهَا لمَعْرِفَةِ أَصْل البَلاء في «مُشْكلات النّهْضَة»، ولتَشْخيصِ كُنْهِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، ولكنّ الحِوارَ - في نهاية المطاف - يَبْقَى وكأنّه «حِوَارُ طُرْشَانٍ»، وتَبْقَى قضيّةُ «العلوم والتّقْنية»، وهي القضيّةُ الأساسُ التي تَقَعُ في قَلْبِ «التّنْمية»، بعيدةً عن التّفْعيلِ على أرْضِ الوَاقِعِ والبَلْوَرَةِ في خُطَطِ عملٍ جَادَّةٍ، وذلك برغْم ما تَتَمَتَّعُ به من إشاراتٍ وإشاداتٍ في الخِطَابِ العامّ والجَلَسَاتِ الخاصّة والمُؤلّفَاتِ والدِّراسات. ولا شَكّ أنّ تَحْديدَ الأُسُسِ والخَلْفيّاتِ والمُنْطلقاتِ المُرْتَبِطَة بأيِّ قضيّةٍ هو أَمْرٌ لازمٌ لبَلْوَرَةِ الإسْتراتيجيّات، وتَحْديدِ الآليّات اللاّزمة للتّعامُلِ معها، ومُعالَجَةِ إشْكالاتِها، وتَطْويرِ إيجابيّاتِها؛ ولذا فإنّ المُؤمَّلَ أنْ يُسْهِمَ الطَّرْحُ في هذا الكِتَاب في إبْرَازِ أهميّة إيلاء «الثّقافة العِلميّة» أولويّةً بَارِزَةً في القرارات السّياسيّة، والمسارات الاجْتماعيّة، والمجالات الإعْلاميّة، والاسْتثمارات الاقْتصاديّة، والمَشْرُوعات البَحْثيّة، والإسْتراتيجيّات التّعْليميّة، والبرامِج التّدْريبيّة.

وبغَضِّ النَّظَرِ عن التَّصْنيفَاتِ التي تَطْرَحُهَا «أدبيّاتُ التّنْمية»، مِثْل مُصْطلحات: «العَالَمُ الأوّل» و«العَالَمُ الثّالث»، أو «عَالَمُ الشَّمال» و«عَالَمُ الجنوب»، إلاّ أنّنا نَسْتطيعُ أنْ نرى أنّ الحَقَائِقَ وَاحِدَةٌ، وإنْ تَعَدَّدَتْ المُسَمَّيَاتُ، وأنْ نَتَعَرَّفَ - بسهولةٍ - على تمايزاتٍ بَارِزَةٍ، واخْتلافاتٍ جِذْريّةٍ، ومُفارَقَاتٍ مُرَوِّعَةٍ، بين وَاقِعِ «العَالَم العربيّ» وأحْوالِ «العَالَم المُتَقَدِّم». ولن أتوقَّفَ مَلِيّاً أمام الاسْتِقْرَارِ السّياسيّ، والازْدِهَارِ الاقْتصاديّ، والنُّفُوذِ العَالَميّ، والإبْدَاعَاتِ الفِكْريّة، والتّفاعُلاتِ التّراكُميّة، التي تُمَيِّزُ «العَالَمَ المُتَقَدِّمَ» إزاء ما نُشَاهِدُهُ في «العَالَم العربيّ» من اضْطِرَابَاتٍ سياسيّةٍ، وقلاقِل اجْتماعيّةٍ، ومُشْكلاتٍ اقْتصاديّةٍ، وإخْفَاقَاتٍ تَنْمَويّةٍ؛ فتلك فُرُوقٌ جوهريّةٌ، إلاّ أنّها «نتائِجٌ» وليستْ «أسْبَاباً»؛ فهي نتائِجُ حَتْميّةٌ لمسارات مُتَنَاقِضَةٍ، حيث أَخَذَتْ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» بالشّقِّ الأسْهل،

وتَرَكَـتَ الشِّقَّ الأَصْعب، فتملَّكها الشَّغَفُ بالمَظَاهِرِ، والاهْتمامُ بالسَّفَاسِفِ، والتَّكالُبُ على الاسْتِهْلاكِ، وإِهْمَالُ طبيعةِ التّحدّيات، وإِغفَالُ «رُوحِ العَصْرِ».

إنّ مُعْظَـمَ التّجلِّيَاتِ العَصْريّةِ في «العَالَمِ العربيّ» هي مُجَرَّدُ اسْتِعْرَاضٍ واسْتِهْلاكٍ وتَفَاخُـرٍ؛ فالأَفْكارُ يتباهى بها المُثقّفون بعد نَقْلِهَا حرْفِيّاً من مصادرِها الأجنبيّة، أو بعد أنْ يُضِيفُـوا إليها بُهَارَاتٍ بِيئيّةٍ ونَكْهَاتٍ تُرَاثيّـةٍ ولَمَسَاتٍ هَامِشيّةٍ، ثمّ بعد كُلِّ ذلك الجُهْدِ المَمْسُوخِ لا تجدُ لها على أرْضِ الوَاقِعِ تَطْبيقاً ولا نَفْعاً، وكُلُّ ما يَنْتُجُ عنها هو صِرَاعٌ فَوضويٌّ، وجَـدَلٌ عقيـمٌ، و«حِوَارُ طُرْشَـانٍ» حول شِعَـاراتٍ لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِي من جُـوعٍ، وكُلُّ غايتها هـو أنْ تَمْنَـحَ المُثقّفين شُعُوراً زَائفاً بالزَّهْـوِ والأهميّةِ والأُسْتَاذيّةِ والرِّيـادة. أمّا «العلومُ الحديثـةُ» التـي تَسْتَنِدُ إليها حضارةُ العَصْـرِ، وتَنْطَلِقُ منها مُقوِّمَاتُ الحيـاة المُعَاصِرَة، فهـي – في «العَالَمِ العربـيّ» – مُجَرَّدُ عُلـومٍ للتّلقين، وحَشْوِ الأَدْمِغَـة، وتوزيع الشّهادات، وتَخْريـج الخرِّيجين الذين يَتَوَلّى كثيرٌ منهم إعادة «الـدَّوْرَةِ التّقْليديّة» من جديدٍ؛ وهكذا تَتَحَـوَّلُ عُلـومُ «التَّجْريب والتَّطْوير والإنْتـاج» إلى عُلوم «نَظَريَّاتٍ وكَلامِيَّـاتٍ»، تَعْتَمِدُ على الحَشْوِ والاسْتِظْهَـارِ بَدَلاً من المُمَارَسَةِ الإنْتاجيّةِ الفَاعِلَة، والفَهْمِ التّحْليليّ الدّقيق. وأمّا «قِصَّةُ الصِّناعة والتّقْنية» في «العَالَمِ الثَّالث»، فهي تَنْحَصِرُ – مع تَنَوُّعٍ في الكَيْفِ وتَفَاوُتٍ في الكَمِّ – في مجالات التَّجْميعِ والتَّوريدِ والتَّوزيعِ والاسْتِهْلاكِ، وهي تَنْتَهِي دائماً بأَكْدَاسٍ من النِّفايات، ومُسْتودعاتٍ من الأَجْهِزَةِ والمُعِدَّاتِ التي تَنْتَهِي آجالُها سريعاً لتَبْدَأَ الدَّوْرَةُ – مَـرَّةً أُخْرى – فـي اسْتِجْدَاءِ الجديد والمُتَطوِّر. وأمّـا عن أُسْطُـورَةِ «البَحْثِ العِلْميّ» في «المُجْتمعـات العربيّة»، فحَدِّثْ ولا حَرَج، وهي حالةٌ جديـرةٌ بالتَّمعُّنِ والتَّدْقيق، ولا بُدَّ لنا معها من وَقْفَةٍ خاصّة.

٩-٤-٣) أُسْطورَة «البَحْث العِلْميّ» في العَالَم العربيّ:

فـي الوَقْتِ الـذي يتعاملُ فيـه «العَالَمُ الأَوَّلُ» مـع قضايا «البَحْثِ العِلمـيّ» على أنّها حِرْصٌ نزيهٌ على «المَعْرِفَةِ»، وجُهْدٌ جماعيٌّ تَرَاكُميٌّ، ووسيلـةٌ جَادَّةٌ لـ«التّنْمية»، وتوظيفٌ موضوعـيٌّ للمَـوَارِدِ الطّبيعيّـة والبشريّة، فـإنّ «المُجْتمعات العربيّة» وَجَـدَتْ في «البَحْثِ

العِلْميّ» ضَالَّتَهَا لخِدمَةِ أغْرَاضِ «التَّرْقية العِلْميّة» في الجامعات، وتَعْميقِ النَّزْعَةِ الفَرْديّة، وزيادةِ صفحاتِ «السِّيَرِ الذَّاتيّة»؛ فكَثُرَتْ «الكراسي العِلْميّة»، وتَعَدَّدَتْ المُسَمَّيَاتُ، وشَحَّتْ «المدارسُ الفِكْريّة» - أو انْعَدَمَتْ -، وتَقَلَّصَ «البَحْثُ التّنْمَويُّ» الجَادُّ - أو انْقَرَض -. وأمّا أبْـرَزُ الشّكاوى في «دِراسات التّنْميــة» في «العَالَمِ العربيّ» فهو شُحّ المَـوَارِدِ المُخَصَّصَةِ لـ«البَحْـثِ العِلْميّ» مُقَارَنَةً بما هو مُتَاحٌ في «العَالَمِ الغَرْبــيّ»، ولكن «قِصّةُ البَحْثِ العِلْميّ» أكْثر تَعْقيداً من تلك الصُّورَةِ المُبَسَّطَةِ التي تُعْطِي الانْطِبَاعَ بأنّ المُشْكلة ماليّةٌ بَحْتَةٌ، وأنّه بمُجَرَّدِ التّغَلُّبِ عليها سيَنْطَلِقُ المُجْتمعُ إلى آفاقِ «التّنْمية والبَحْث والتّطْوير»؛ فحقيقةُ الأَمْرِ أنّ لـ«البَحْــثِ العِلْميّ» تَشَابُكَاتٍ عميقةً وتَدَاخُــلاتٍ جِذْريّةً مع الأُطُرِ الإداريّة والاجْتماعيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والثّقافيّة والتّدْريبيّة ممّا يَجْعَلُ التّعامُلَ معه في حاجةٍ إلى تَمْحيصٍ دقيــقٍ ورَبْطٍ وَاقِعيٍّ مع غيره من العَنَاصِرِ الجوهريّةِ فــي «إشْكَاليّةِ التّنْمية». إنّني أزْعُمُ - دون تــردُّدٍ - أنّ مــن حُسْنِ الحَظّ أنّ الإنْفَــاقَ على «البَحْثِ العِلْميّ» لم يكُـنْ أكْثر ممّا هو عليــه الآن؛ لأنّ «البَحْثَ العِلْميّ» يُصْبِحُ تَرَفَاً وإهْدَاراً للمَوَارِدِ عندما تغيبُ «الإسْتراتيجيّةُ» الوَاضِحَــة، والأهْدَافُ المُحَــدَّدَة، والأولويّاتُ الوطنيّــة، والمعاييرُ المُنْضَبِطَــة، والثّقافةُ القَــادِرَةُ على اسْتيعــاب شُرُوطِه، والإدَارَةُ المَاهِــرَةُ المُتَمَكِّنَةُ من رَبْــطِ مُخْتلف العَنَاصِرِ وتوظيفِها - بكفاءَةٍ - في خِدْمَةِ «القضيّة التّنْمَويّة»؛ فحقيقةُ الأَمْرِ أنّ الإنْفَاقَ ليس هدفاً فــي حَدِّ ذاته، ولكنّ المَطْلُوبَ هو تَحْقيقُ الأهْــدَافِ وبُلُوغُ المَقَاصِد، كما أنّ من الضّروري أنْ تَتَوَافَرَ للمُؤَسَّسَاتِ البحثيّةِ القُدْرَةُ على إدارةِ مُخَصَّصاتِها بكفاءَةٍ وفَاعِليّة.

عندما تَتَشَتَّتُ الجُهُودُ البَحْثيّة، وتَتَمَحْوَرُ الاهْتماماتُ حول بُحُوثِ «التّرْقية العِلْميّة»، وتَتَسَابَــقُ الجامعــاتُ - أو مُعْظَمُهَــا - نحــو الوَهَجِ الإعْلامــيّ؛ وعندما تَتَكَدَّسُ الأجْهِزَةُ والمُعِــدّاتُ فــي مَعَامِــل تَفْتَقِرُ إلى الخِبْــرَاتِ الحقيقيّة والكَــوَادِرِ المُسَانِــدَةِ القَادِرَةِ على الصِّيانــة والتّشْغيل والتّطْوير؛ وعندمــا تَتّجِهُ الأنْظَارُ إلى الشَّكْليّــات الدِّعَائيّة والمَظَاهِرِ المُزَيَّفَــةِ بعيداً عــن الفَاعِليّةِ المُنْتِجَة والجوهــرِ العِلْميّ، فإنّ أيَّ مَبْلَــغٍ مَرْصُودٍ لن يَصُبَّ في خِدْمَةِ «الأغْرَاضِ التّنْمَويّة». قد تَكْثُرُ البُحُوثُ المَنْشُورة، وتَتَمَدَّدُ السِّيَرُ الذّاتيّة، ولكنّ انْعكاساتهــا الحقيقيّة علــى العمليّة الإنْتاجيّــة، والتّعْليم النّافِع، والازْدهــار الاقْتصاديّ،

والإضافة المَعْرفيّة، تَظَلُّ مَحْدُودَةً وقَاصِرَةً إزاء حَجْمِ الإنْفَاقِ الفِعْليّ والبَهْرَجَةِ الإعْلاميّة الصّاخِبَـة. إنّ من بدهيّات «الاقْتصاد» - على المُسْتـوى الفَرْديّ والجماعيّ - أنّ «كَفَاءَةَ الأداء» ليستْ مُرْتَبِطَةً بـ«حَجْمِ الإنْفَاقِ»، فمن الضّروري النَّظَرَ إلى اعْتبارات أُخْرى يكون بعْضها أكْثر أهميّةً من الدِّرْهَم والدِّينَار، بَلْ في حالاتٍ كثيرةٍ يكون العَكْسُ صحيحاً، حيث تُغْرِي وَفْرَةُ المال بالتَّوسُّعِ دون طَائِل.

إنّنــا نُخْطِـئ كثيـراً إذا سَمَحْنَا لخيالِ الشُّعَـرَاءِ أنْ يُداعِبَنَا؛ فنتصــوَّرَ أنّ مَجْمُوعَةً مِــن الأبْحَاثِ المُتَفَرِّقَةِ والمُتَوَالِدَة، مهمــا كان دَعْمُهَا وعَدَدُهَا، ستَنْقُلُ المُجْتمع من مَوْقِع «المُسْتَهْلِـك» إلــى مَوْقِــع «المُنْتِج»؛ فمِثْلُ تلــك التَّصــوُّرات تَعْكِسُ سوء فَهْــم لخَصَائِص «الحركــة العِلْميّــة - التّقنيّة» التي تَحْتَاجُ إلى «عمــلٍ جماعيٍّ» مُتَرَاكِم الجُهُــودِ، ومُتَكَامِلِ القَسَمَــاتِ، يَصُــبُّ في اتِّجَاهَــاتٍ وَاضِحَةٍ وأولويَّــاتٍ وطنيّةٍ ثَابِتَــةٍ، وتَتَّسِعُ أُطُــرُهُ وقَنَوَاتُهُ لتتفاعــل مع الخُطَــطِ التّعْليميّة، والأنْشِطَــةِ الابْتكاريّة، والبــرامج التّدريبيّــة، والتّوَجُّهَاتِ الثقافيّــة، والسِّياســات الإعْلاميّــة، وضَوابِــطِ «التَّنسيــق الدّاخِليّ»، ومفاهيــمِ «الإدارة العِلْميّة»، ومَشْرُوعَاتِ «التَّعاون الدَّوليّ»، وغير ذلك كثير.

وأمّــا الحقيقةُ الأُخْرى، فهي أنّ «البَحْثَ العِلْميّ» ليس إلاّ جُزْءاً من «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنيــة»، ووَجْهاً مِــن أوْجُهِهَا الجوهريّة، ولذا لا نَسْتطيعُ أنْ نتعامــل معه بمُفْرَدِهِ بمَعْزِلٍ عــن بقيَّةِ المُكَوِّنَاتِ التي تتلاقحُ وتتفاعلُ لتُنْتِجَ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّة» بكُلِّ مُعْطياتها وإنْجازاتِهــا وانْطلاقاتِهــا؛ فـ«البحْــثُ العِلْمــيُّ» في بيئَتِــهِ الصّحيحةِ هو جُــزْءٌ من ثقافةٍ قَــادرَةٍ على تَعْبِئَةِ الجُهُودِ، واسْتِقْطَابِ المَوَاهِبِ، وتَفْعيلِ «العمل الجماعيّ»، والتّنْسيقِ بين الإمْكَانَــاتِ والمَوَارِدِ، وتوفيرِ البُنَى التّحْتيّة اللاّزمَــةِ لتَحْقيقِ «البِيئة المُنَاسِبَة» لاسْتيعابِ مُكَوِّنَــاتِ «مَنْظُومَــةِ العلوم والتّقْنية». ومن المُهِــمّ - بدايةً - أنْ نَهْتَــمَّ بتَحْقيقِ الاسْتفادة القُصْوى من القُوى البشريّة والتّجْهيزات الأساس المُتَوَافِرَةِ في مُخْتلف الجامعات ومَوَاقِعِ البَحْــثِ ومؤسَّسَاتِ التّقْنية والصّناعة، ومن المُهِــمّ - أيضاً - أنْ نَتَغَلَّبَ على ما يُؤدِّي إلى تَعْطيــلِ الإمْكَانَاتِ وضَيَاعِ الفُرَصِ وهَدَرِ الطَّاقَاتِ؛ وعندمــا يَتَحَقَّقُ ذلك التّفعيلُ للآليّاتِ المُتَاحَــةِ لبُلُوغِ درجةٍ مَقْبُولَةٍ من الإنْجازِ والتّنْسيق والإنْتاجيّة، نَسْتطيعُ ساعتها أنْ نُطالِبَ

بزيـادة الإنْفَاقِ على «البَحْثِ العِلْميّ» من مَنْظُورٍ إسْتراتيجيٍّ، وقِرَاءةٍ وَاقِعيّةٍ، ومَشْرُوعَاتٍ مُبرْمَجَةٍ - زمنيّاً وماليّاً ومكانيّاً -.

لقــد قُلْنَا إنّ ما تُبْرِزُهُ القِـرَاءةُ السّريعةُ عن أوضاعٍ مُمَيِّزَةٍ لـ«العَالَمِ الأوَّلِ» هو مُجَرَّدُ أعْرَاضٍ ونتائِجَ لأسْبَـابٍ وإسْتراتيجيّاتٍ امْتَلَكَـتْ زِمَامَهَا تلك «المُجْتمعـاتُ المُتَقَدِّمَةُ»، وهَيَّـأتْ البُنَـى التّحْتيّـة والآليّات العمليّـة لتَنْفيذِهــا وتَعْميقِها، بينما اهْتَمَّـتْ مُجْتمعاتُ «العَالَمِ الثَّالثِ» بصِياغَـةِ المُبرِّرَاتِ، وبَلْوَرَةِ المُسَوِّغَاتِ، وتكْريسِ الشَّكْليّاتِ، والبَحْثِ عن «المَشَاجِبِ»؛ فالأعْذارُ دائماً مُتَوَافِرَةٌ لكُلِّ شيءٍ وأيِّ شيءٍ. وأمّا الانْضِبَاطُ في أُطُرٍ مَنْهَجِيّةٍ وَاضِحَـةِ الملامحِ، والأَخْـذُ بالأسْبَابِ الجوهريّــة، ورَسْمُ المَسَارِ، والصَّبْـرُ على تَنْفيذِه، والدِّقّــةُ في مُتَابعَتِه، والمُحَاسَبَةُ على التَّقْصيرِ، فإنّ ذلــك كُلّه ليس من شِيَمِ الكِرَامِ عند الأمْجَــادِ في «العَالَمِ الثَّالثِ»؛ وهكذا رَاحَتْ هذه المُجْتمعاتُ تَحُومُ حول «الحِمَى التّنْمَوِيّ» ولا تَقَعُ فيه.

وفــي سِياقِ البَحْثِ عن الأسْبَــابِ الجوهريّة التي قَادَتْ إلى ذلــك التَّصْنيفِ القَائمِ بيــن «العَالَمِ الأوّلِ» و«العَالَمِ الثَّالثِ»، وأحْدَثَتْ الفُرُوقَ الكُبْرى بين المُجْتمعات في عَالَمِنَا اليــوم، يَنْبَغِي أنْ نَتَوَقَّفَ أمــام مَقُولَةِ جورج سارتون، وهو يُــؤرِّخُ لحِقَبٍ طويلةٍ من التّاريخ البشــريّ، ليَخْلُصَ إلى أنّ: (الفَرْقَ الفِكْريّ العظيم بين البشــر ليس بسبب الجُغْرافيا أو الجَوانِـبِ العِرْقيّة، ولكن بين أولئك الذيــن يَفْهَمُونَ ويُطَبِّقُونَ «المَنْهَـجَ التَّجْريبيّ»، وبين أولئــك الذيــن لا يَفْهَمُونَـهُ ولا يُطَبِّقُونه)[٩٣]. أمّا قضيّــةُ فَهْمِ «المَنْهَـجِ العِلْميّ» وتَطْبيقه فهــي مَدْخَلٌ وَاسِــعٌ تتشابكُ عنــده القضايا وتَتَنَــوَّعُ التَّحدِّيات، وهو يَحْتَــاجُ - في المقام الأوّل - إلــى تَأْسيسِ «التّفْكيـرِ العِلْميّ» وتَأْصيلِه في البيئة، وتَدْريــبِ العُقُولِ على التّحْليلِ والاسْتِنْبَــاطِ والاسْتِقْرَاء، وتَحْفيــزِ المُجْتمعات على العملِ الإنْتاجــيّ والمُمَارَسَةِ العمليّة؛ وكُلُّ هــذا يَتَطَلَّبُ عزيمةً قويّــةً وأولويّاتٍ ثَابِتَةً؛ ولأنّ قَنَوَاتِه صَعْبَــةٌ، والأَخْذَ بأسْبَابِه شَاقٌّ، فــإنّ «العَالَمَ الثَّالثَ» رَضِيَ من الغنيمةِ بالإيــاب. ويَضَعُ جورج سارتون إصْبَعَهُ على جوهرِ القضيّــة حيث تُعْزَى إليه مَقُولة: (إنّ «العلوم الحديثة» هي «شُمُوليّة المَعْرِفَةِ الإيجابيّة»)؛ فلقد أَخْفَقَتْ مُجْتمعاتُ «العَالَمِ الثَّالث» أمام تحدِّياتِ «العلوم الحديثة» وشُرُوطِ «التّقْنية»؛

لأنّهــا تَخلَّتْ عن «المَعْرِفَـةِ الإيجابيّة»، وتَرَكَتْهَا لمُجْتمعاتِ «العَالَـم الأوَّل»، وانْصَرَفَتْ - كما هو ظَاهِرٌ للعِيان - إلى مُحاولاتٍ عَنْتَرِيّةٍ تارةً، ومُسْتَكِينةٍ تارةً أُخَرى، في خِضَمٍّ «رُدُودِ فِعْـلٍ» آنيّةٍ، واسْتِجَابَاتٍ غَرِيزِيّةٍ للأَحْدَاثِ ومُجْرِيات الأُمُور؛ وكُلُّ ذاك أَمْرٌ سَهْلٌ وتِلْقَائيٌّ، وأمّـا «الفِعْلُ الرِّياديُّ» المَطْلُوبُ فقد هَجَرَتْهُ طَوْعَاً أو كَرْهَاً، وهو اتِّخَاذُ القَرَارِ الصَّعْبِ في الوَقْتِ الصَّعْبِ للهدفِ الصَّعْب.

وأمّا الخُلاصَةُ، فإنّه من الوَاضِحِ - عبْر هذا الطَّرْحِ - أنّ «النَّمُوذَجَ العربيّ للتّنْمية» يَنْبَغِـي أنْ يَحْتَضِنَ في مُخْتلف مساقاته التّربويّــة والتّعْليميّة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة تلك «الرُّؤْيَةَ الحضاريّة - الثّقافيّة» لجوهرِ طبيعة «العلوم والتّقْنية»، ودَوْرَهَا الرِّياديّ في تَنْميةِ المُجْتمع وازْدِهَارِهِ واسْتِقْرَارِهِ وأَمْنِه؛ وبالتّالي فإنّ تلك «الرُّؤْيةَ الشّامِلَةَ» يَنْبَغِي أنْ تَقَعَ في قَلْبِ «مَنْظُومَةِ التّنْمية»، وتُمَثِّلَ الأُسَّ الأكْبَرَ في نَمُوذَجِهَا لتَمْكينِ قَواعِدِ «مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتَرْسيخِ أَرْكَانه، وتَطْويرِ فَعّاليّاتِه.

٩-٥) العَلاقَة بين «الثّقافة» و«التّنْمية»:

لقــد حَرَصْــتُ - في هــذا الكِتَاب - علــى التّأكيــدِ علــى أنّ العَلاقَةَ بيــن «التّنْمية» و«الثّقافة» هـي «عَلاقَةٌ عُضْويّةٌ» حيث يَحْتَاجُ كُلٌّ منهما للآخَر لكي يُحقِّقَ وجوده، ولذا تجدُ «إشْكَاليّــةُ التّنْميــة» جُذُورَهَا في «مُعْضِلَةِ الثّقافة». قد يَبْدُو هذا الطَّرْحُ على قَدْرٍ كبيرٍ من التّبْسيط، وأنّه لا يأْخُذُ في الاعْتبار الطّبيعةَ المُعَقّدَةَ لـ«عمليّة التّنْمية»، ولكن مهما تَنَوَّعَتْ العَنَاصِـرُ المُتداخِلَـةُ في تفاعُلاتِ «العمليّــة التّنْمَويّة»، فإنّــه لا يُمْكِنُ التَّهوِيــنُ من شَأْنِ «التّأْثيــر الثّقافيّ»؛ بَـلْ إنّ كُلَّ عُنْصُرٍ من عَنَاصِرِ «التّنْميــة» مُرْتَبِطٌ - بالضّرورة - برُؤْيةٍ ثقافيّةٍ، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ مالك بن نبيّ بقوله: (كُلُّ وَاقِعٍ اجْتماعيٍّ هو في أَصْلِهِ قِيمَةٌ ثقافيّةٌ خَرَجَتْ إلى حَيِّزِ التّنْفيذ)[٢٨]. تلك الحقيقةُ تَجْعَلُ «الثّقافة العِلْميّة»، وهي جَوْهَرُ قضيّتِنا في هذا الكِتَاب، ذات بَاعٍ طويلٍ في تَفْعيلِ «ثقافةٍ مُعَاصِرَةٍ» قَادِرَةٍ على أنْ تَحْتَضِنَ بَرَاعِمَ «التّنْمية»، وتُطَوِّعَ مُعْطياتِها، وتُؤَمِّنَ مُقْتضياتِها. وفي الوَقْتِ نفْسه تَنْتَصِبُ «ثقافةُ العلوم» - فــي حَــدِّ ذاتها - لتكــون قضيّةً في حَاجَةٍ إلى الكثيــر من الدِّراسة والتَّعْميــق والتَّأْصيل

والتَّطْوير والتّفْعيل لأدواتِها ووسائِلِها لجَعْلِهَا مُكَوِّناً رئيساً من مُكَوِّنَاتِ «الثَّقافة السَّائِدَة»، وعُنْصُـراً حيويّاً قَـويَّ التَّفاعُلِ ودَائِمَ التَّأْثيرِ في «قضيّة التّنْميــة» ومُتَغَيِّرَاتِهَا الدّيناميكيّة العمليّــة وحَرَاكِهَا المُجْتمعيّ. كُلُّ هذا يَجْعَلُ من قضيّة «الثَّقافة العِلميّة» تَحَدٍّ قَائم في حَدِّ ذاتــه، ولا يُمكنُ التّعامُـلُ - بنجاحٍ مَلْموسٍ - مع «فضاءات التّنْميــة» المُتَعَدِّدَةِ إلاَّ بإعْطَاءِ هذه القضيّة حَقَّهَا من الاهْتمامِ والدِّراسةِ والبَحْثِ والدَّعْمِ والتَّكْثيفِ والتَّفْعيل.

ومــن الأسْئلــة المُهمّة التي يجــبُ أنْ تَشْغَلَ ذِهْــنَ المُتَأمِّلِ للوَاقعِ العِلْمــيّ - الثَّقافيّ سؤالُنــا: (إذا كان «مَفْهُـومُ الثَّقافــة العِلْميّــة» ومضامينُــه ومُقْتضياتُــه قــد اسْتَقَرَّتْ في العَقْـلِ والوِجْـدَانِ الغَرْبيّ عبْر «عمليّةٍ تَرَاكُميّةٍ» لها تجاذُباتُهــا وتحدِّياتُها ومُعَوِّقَاتُهَا على مــدى ثلاثة قُرُونٍ، فهل يَلْزَمُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» انْتِظَــارَ الفتْرة نفْسها ليَتَأصَّلَ «الوَعْيُ العِلْمــيُّ» في نسيجِها الحياتيّ، وتَتَكَثَّفَ «العَنَاصِــرُ المَعْرفيّةُ» و«الرُّؤى التّنْمَويّة» في بِنْيَتِهَا الذِّهْنيّــة؟). إنّ هــذا السُّـؤال - في حَـدِّ ذاته - يُمَثِّــلُ «تحدِّياً» كبيراً أمــام «المُجْتمعات العربيّــة»، ويَسْتَدْعِــي «اسْتِجَابَــةً» تتناســبُ مــع حَجْمِــهِ ودَلالاته وامْتداداتــه. ومن ذلك المُنْطَلــقِ، يَنْبَغِــي أنْ نَهْتَمَّ بصِياغةِ برامِجِ ومَشْرُوعَاتٍ تُمَثِّلُ مُبَــادَرَاتٍ رِياديّةً شَامِلَةً على «المُسْتــوى الوطنــيّ» ذات اسْتِقْطَابَــاتٍ وتداعياتٍ وتأْثيراتٍ على مُخْتلــف الجَبْهَاتِ - في القِطَاعَيْنِ العامّ والخاصّ - للوصولِ إلى «العُمْقِ المُجْتمعيّ»: تفاعُلاً، وإحْصَاءً، وتَأْسيساً لقَواعِدِ البيانات، ونَشْراً للمفاهيم العِلْميّة، وتوظيفاً للمَوارِدِ البشريّة والإمْكَانَاتِ الماليّة؛ وبذلــك تكونُ «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» بمَثَابَةِ المَرْكَبَةِ القَادِرَةِ على توصيــل حُمُولَتِهَا الثَّقافيّة - العِلْميّة بكفاءَةٍ إلى مُخْتلف مَوَاقِعِ المُجْتمع وشَرَائِحِه.

ومــن المُهــمّ أنْ تكون تلــك المُبَــادَرَاتُ والمَشْرُوعَاتُ قَــادِرَةً على اخْتِـرَاقِ «البِنْيَةِ الثّقافيّة والتّعْليميّــة والإعْلاميّة والمُجْتمعيّة»، فتتمتَّعُ بِصِفَةٍ مُؤَسَّسِيّةٍ ذات صِبْغَةٍ تفاعُليّةٍ لتُؤَصِّــلَ أبْعَادَ «الثَّقافة العِلْميّة» فــي المُجْتمع، وتُشَيِّدَ الجُسُورَ مع فِئَاتِــهِ المُخْتلفة، وتَفْتَحَ القَنَــوَاتِ بين «الحركــة العِلْميّــة - التّقنيّة» والتَّفاعُــلاتِ المعيشيّة والثّقافيّــة والتّنْمَويّة، وتُسْهِــمَ في تَهْيِئَــةِ مُنَاخٍ تَزْدَهِرُ فيــه «الثَّقافةُ العِلْميّــةُ» بصفتها «ظَاهِــرَةً اجْتماعيّةً» لها فَاعِليّتُهَــا وصداهــا وامْتداداتُهــا. ولأنّ «الزَّمَــنَ» - في حَـدِّ ذاته - يُمَثِّلُ أحــد التَّحدِّيات

الكُبْرى لجيـل «الأَلفيّة الثّالثة»، فإنّ طبيعة التّرَاكُمَاتِ المُؤهِّلَـةِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَة النَّوْعيّةِ» المَنْشُـودَة ستتطلَّبُ مُواصَفَاتٍ خاصّةً، فليس من المَعْقُـولِ خَوْضُ مَعْركةٍ بأَسْلِحَةٍ صَدَأَتْ بفِعْلِ الزّمن، ولا يَجُوزُ قَبُولُ الأَعْذَارِ والمُبَرِّرَاتِ ونحن نتعاملُ مع «مُقَدِّمَاتٍ» لا يُمْكِنُ بحالٍ أَنْ تقودَ إلى «النَّتَائِجِ» المَنْشُودَة. إنْ كنّا جَادِّين في مُوَاجَهَةِ «تَحَدِّيات العَصْرِ» والانْطَلاقِ فـي «آفَـاقِ التَّنْمية» فلا مناص من رُؤيةٍ شَامِلَةٍ تَهْتَمُّ بصِياغَـةِ «مَشْرُوعَاتٍ وطنيّةٍ» تَمْتَلِكُ خاصيّةَ «الدَّفْعِ الذّاتيّ» و«التَّكَاثُرِ المُتَلاقِحِ» لتَسْتَوْعِبَ مُعْطياتِ «الزَّمان» و«المكان» لتَسُدَّ فَجْـوَةَ «البُعْدِ الزَّمَكَانيّ» الـذي تَطرَّقْنَا إليها في الفَصْلِ الثّالث، ولتَدْفَعَ بالطَّاقَاتِ الشَّابَّةِ على طريقِ الإنْتاج والإبْداع والابْتكار، ولتَنْتَزِعَهَا من دَوَّامَاتِ العَجْزِ والإحْبَاطِ والغُرْبَةِ في عَصْرِ التَّفَوُّقِ العِلْميّ والهَيْمَنَةِ التّقنيّة.

وفي نهاية المطاف، فإنّ من المُهِمّ أن نَسْتَوْعِبَ حقيقة أنّ الأَمْرَ يَرْتَبِطُ برُؤيةٍ تُدْرِكُ أنّ «التَّغْييـرَ الثَّقافيّ» يَتَطَلَّبُ زَمَناً وصَبْـراً، وأنّ «الثَّقافة العِلْميّة» – بطبيعتِها ومضامينِها – قضيّـةٌ تَرَاكُمِيَّـةٌ، والمُهِمُّ هو توظيفُ آليّاتٍ وبرامج ذات رُؤيـةٍ بعيدةِ المدى قَادِرَةً على التّأثير الفعَّال، وقَابِلَةً للقِياسِ والتّحْليلِ والتّقْييم والتّصْحيح. ومن المُهِمّ – أيضاً – إدْراك أنّ لـ«الثَّقافـة العِلْميّـة» دَوْراً مِحْوَرِيّاً في مُعَالَجَـةِ مُعْظَمِ الهُمُوم التـي يَطْرَحُهَا المُثقَّفون العرب، مثْل: «قضيّةُ المَرْأَةِ»، و«قضيّةُ الوَحْدَةِ العربيّة»، و«قضيّةُ الدِّيموقراطيّة»، وغيرها من «إشْكَالاتِ النَّهْضَة» و«طُرُوحَاتِ التَّنْمية». وبالرّغْم من أنّ هذه الموضوعات – في حَدِّ ذاتها – تَحْتَاجُ إلـى أسْفَارٍ ومُدَوَّنَاتٍ للإحَاطَةِ بتداخُلاتِهَا وتشعُّباتِهَا، إلاّ أنّنا نُعَرِّجُ عليها علـى عَجَلٍ، وفي إيجازٍ قد يَبْلُـغُ درجة التَّبْسيط، إلاّ أنّه ضَروريٌّ لإرْسَاءِ المُنْطَلَقِ الأساسِ لمُعَالَجَةِ هذه القضايا، ولإبْرازِ الدَّوْرِ المِحْوَرِيّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» في هذه المُعَالَجَة.

٩-٥-١) «قضيّة المَرْأة» في «المُجْتمعات العربيّة»:

لقد عَزَا «تَقْريرُ التَّنْمية الإنْسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢ م»[١٥] – الصَّادر عن «بَرْنامج الأُمَـم المُتَّحدة الإنْمائيّ» – أسْبَـابَ «الأَزْمَةِ التَّنْمَويّة» في المنْطقـة العربيّة إلى نَوَاقِص ثلاثـة، كان أحدهـا «النَّقْصُ فـي تَمْكين المـرأة»؛ وعمومـاً، فـإن أوضاع «المَـرْأَة» في

«المُجْتمعـات العربيّة»، وما يَدُورُ - منْذ أمدٍ طويـلٍ - عن دَوْرِهَا في المُجْتمع، وما يَعْتَريه مـن ضبابيّـةٍ أو تَهْميشٍ أو ظُلْمٍ، موضوعٌ ما زال يَحْتَـلُّ الوَاجِهَةَ في التّفاعُـلاتِ الثّقافيّة والسّياسيّـة والاقْتصاديّـة والاجْتماعيّـة السّائِدَة. وبغَضِّ النَّظَرِ عن طبيعـة المُدَاوَلاتِ المَطْرُوحَةِ في السّاحة العربيّة، وتَفَاوُتِ درجة حِدَّتِهَا من مُجْتمعٍ إلى آخَر، فإنّ من المُهِمّ أنْ نُـدْرِكَ تلـك الحقيقـة التي تَنَبَّـهَ لها مالك بن نبـيّ منْذ أواخر الأربعينـات من القَرْن الماضـي عندما قـال: (ليستْ «مُشْكِلَةُ المَرْأَةِ» شيئاً نَبْحَثُه مُنْفَـرِداً عن «مُشْكِلَةِ الرَّجُل»، فهمـا يُشَكِّلانِ في حقيقتِهما مُشْكلةً وَاحِـدَةً هي مُشْكِلَةُ الفَرْدِ في المُجْتمع)[٢]. ومن هذا المُنْطَلَقِ تُصْبِحُ «قضيّةُ المَرْأَة» جُزْءاً من «المُعْضِلَةِ الثَّقافيّة» التي تعيشُها الأُمّة، ولا يُمْكِنُ حَلُّهَا بقـراراتٍ وتأمُّلاتٍ وانْفعالاتٍ ومُزايـداتٍ واسْتفزازاتٍ، ولكنّها تَكْمُـنُ في «التَّصَوُّرِ الثَّقافـيّ» الذي يَفْهَـمُ «رُوحَ العَصْرِ» ومُقْتَضياتِه، ويُدْرِكُ «دَوْرَ الفَـرْدِ» وإسْهاماتِه، ويَهْتَمُّ بـ«التّنْمية» وشُرُوطِهَا، ويَسْتَوْعِبُ حقيقةَ أنّ «الوطن مِلْكٌ للجميع»، وأنّ «مُسْتَقْبَلَ المُجْتمعِ» رَهْـنٌ لتضافُرِ جُهُودِ «الرَّجُلِ» و«المَرْأَةِ» على حَدٍّ سَواءٍ، وتَمَثُّلِهِمَا الجَادِّ لـ«التَّفْكيرِ العِلْميّ» والالْتِزَامِ الأَخْلاقيّ والعمليّ بـ«التّنْمية» ومُعْطياتِها.

إنّ «المَـرْأَةَ» و«الرَّجُـلَ» شَرِيكَانِ في صِنَاعَـةِ «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» تَهْتَـمُّ بصَالِحِ المُجْتمع، فكِلاهما طاقاتٌ كَامِنَةٌ يَنْبَغي تَفْعيلُها نحو «المُسْتَقْبَل»، ورُؤاه التّنْمَويّة، وتفاعُلاته الحيويّة، ومعانيـه الإنْسانيّـة؛ ليُصْبِحَ للفَرْدِ - ذَكَراً كان أمْ أُنْثَى - قِيمَةً ومكانةً، ويكون اعْتِزَازُ الفَرْدِ بما يُحْسِنُهُ ويُتْقِنُهُ ويُنْتِجُهُ للمُجْتمع، فليس الهدف كما يقول مالك بن نبيّ أنْ تَتَحَوَّلَ «المَرْأَةُ» إلـى (صُورةٍ مُشَوَّهَةٍ للرَّجُـل)[٢]، ولكن الهدف أنْ تتكامل جُهُودهمـا، وتُؤَمَّنَ حُقُوقهما في بَوْتَقَةٍ «إنْسانيّةٍ - تَنْمَويّةٍ - عِلْميّةٍ» تَذُوبُ فيها، أو تَتَبَخَّرُ منها، تلك الحساسيَّاتُ الغَرَائِزِيّةُ، والانْفعـالاتُ الاجْتماعيّـةُ، والمُبَالَغَاتُ الكلاميّةُ، وأنْمَاطُ التّغْريـبِ المَمْسُوخَةِ التي كانتْ - وما زالتْ - عَائِقاً أمام قِيَامِ «المَرْأَةِ» بدَوْرٍ فَاعِلٍ في «المُجْتمعات العربيّة».

مـن المُهِـمِّ - إذاً - تَرْسيخُ تلك «الثَّقافة التّنْمَويّة» برُؤاهـا الشّامِلَة، وحِرْصِهَا على المعانـي الإنْسانيّة ومَكَانَةِ الفَرْدِ فيها؛ وبـذا تَتَعَزَّزُ هُوِيَّتُهُ، وقِيَمُ مُجْتمعِه، عبْر تلاقُحِ تلك العناصـرِ الحيويّـة مع قِيَمِ المُجْتمـع وتَطَلُّعَاتِهِ في بَوْتَقَةٍ تكونُ فيهـا، كما قال زكي نجيب

محمود: (الحَوَافِزُ من الدِّينِ والوَسَائِلُ من العِلْم)[٢٠]. إنّ الدَّوْرَ الرِّياديّ لـ«الثَّقافة العِلْميّة» - في هذه الحالة - هو في إشَاعَةِ رُؤيةٍ ثَاقِبَةٍ، وَاضِحَةِ الملامِح، وبَارِزَةِ التّفاصيل، تَحْتَكِمُ بعَقْلانيّةٍ إلى «شُرُوطِ العِلْم» و«ضَوابِطِ الدِّين» في «تَوَافُقٍ تَنْمَويٍّ» يُعَزِّزُ «مَفْهُومَ الأولويَّات»، ويَسْبُرُ أغْوَارَ الدّيناميكيّة اللّازِمَةِ لتَفْعيلِ أُصُولِ «الثَّقافة السَّائِدَة»، ومَنْحِهَا رُوح عَصْرِهَا وفَاعِليّتها الاجْتماعيّة في تفاعُلاتِها مع أفْراد المُجْتمع - ذُكُوراً وإنَاثاً -.

وفي نهاية المطاف، نَطْرَحُ من جديدٍ ما وَضَعَهُ مالك بن نبيّ كإطَارٍ عامٍّ في حَاجَةٍ إلى كثيرٍ من التَّفْصيلِ والتَّوصيفِ والتَّدْقيقِ حيث يقول: (إنّ قضيّتنا مَنُوطَةٌ بذلك التّرْكيب الذي من شَأْنِهِ إزالة التّنَاقُضَاتِ والمُفَارَقَاتِ المُنْتَشِرَة في مُجْتمعنا اليوم، وذلك بتَخْطيطِ «ثقافةٍ شَامِلَة» يَحْمِلُهَا الغنيُّ والفقيرُ، والجَاهِلُ والعَالِمُ، حتى يَتِمَّ للأَنْفُسِ اسْتِقْرَارُهَا وانْسِجَامُهَا مع مُجْتمعها، ذلك المُجْتمعُ الذي سوف يكون قد اسْتَوَى على تَوَازُنِهِ الجديد)[٢]. نَسْتطيعُ أنْ نقول إنّ ذلك «التّوَازُنَ الجديد» سيتحقَّقُ في ظِلِّ «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» تُحَرِّكُ «آليّاتِ التّنْمية»، وتَحْكُمُ مساراتِها، وتَحْتَكِمُ إلى «الشُّرُوطِ التّنْمَويّة»، و«المَقَاصِدِ الشَّرْعِيّة»، والفَهْمِ الحقيقيّ لـ«رُوحِ العَصْرِ» دون انْبِهَارٍ أو انْكِفَاءٍ؛ وسيكونُ لـ«المَرْأَةِ» دَوْرُهَا الرِّياديّ مع شقيقها «الرَّجُل» في مُجْتمعٍ يَتَوَلَّى كُلُّ فَرْدٍ فيه أمْرَ ما يُحْسِنُهُ، ويَتَفَوَّقُ في مجال مهارتِه ومَوْهِبَتِه، ويصوغُ الإجابات لمُشْكلاتِه من وَاقِعِ «الحَرَاكِ التّنْمَويّ»، ويَسْتَمِدُّ أشْكالَه الحياتيّة من مَكَامِنِ الإنْجازات المَلْمُوسَة، ويتفاعلُ - بعَقْلانيّةٍ ورَوِيّةٍ - مع هُوِيَّةِ المُجْتمع وقِيَمِه وتطلُّعاته.

٩-٥-٢) قضيّة الوَحْدَةِ العربيّة:

من أبْرز ما شَغَلَ أذْهان «المُجْتمعات العربيّة» هي «قضيّةُ الوَحْدَةِ» بين أبْناء الشَّعْبِ الوَاحِد من ناحيةٍ، وبين الشُّعُوب العربيّة المُخْتلفة من ناحيةٍ أُخْرى، ولقد جَرَتْ مُحاولاتٌ عِدَّةٌ - سياسيّةٌ وفِكْريّةٌ وثقافيّةٌ وثوريّةٌ واقْتصاديّةٌ - نحو إرْسَاءِ النَّوَى الوَحْدَويّة، ولا نَسْتطيعُ - بعد حِقَبٍ طويلةٍ من التّجْريب والمُعَانَاة - إلاّ أنْ نُؤكّدَ أنّ مُعْظَمَهَا قد باءَ بالفَشَلِ المُطْلَقِ، بينما بعضها واصل تَعَثُّرَهُ وتَقَهْقُرَه؛ وأمّا الكِياناتُ العربيّةُ القَائِمَةُ

فتُهَدِّدُهَــا انْفِصَامَــاتٌ طَائِفيّةٌ وعِرْقيّــةٌ وأيديولوجيّة. وبالرّغْم من تَعَــدُّدِ الأَسْبَابِ لذلك الفَشَـلِ والتَّعَثُّــرِ، إلاّ أنّ قَاصِمَةَ الظَّهْرِ تَكْمُنُ في غِيَابِ «البُعْـدِ التّنْمَوِيّ» الذي يَسْتَطيعُ أنْ يَجْمَـعَ النّاس حول مُعْطياتِه التي تَمْتَصُّ طاقاتِهـم، وتَصْقُلُ إبْداعاتِهم، وتُفَعِّلُ قُدْراتِهم، وتَنْشُـرُ الرَّفَـاهَ والازْدهــار. وتَتَأَكَّدُ تلك الحقيقةُ فـي «التَّجْرِبَةِ الأوروبيّــة» التي نَجَحَتْ – فـي عُقُودٍ قصيرةٍ – فـي أنْ تَقْطَعَ خُطُواتٍ كبيرةً على طريـقِ اتّحادِها وتكامُلِ تفاعُلاتِها الاقْتصاديّــة والسّياسيّة والتّنْمَويّة، وذلك بالرّغْم من اخْتلاف لُغَاتِهَا وثقافاتِها، وما فيها مـن صِرَاعَاتٍ قديمةٍ وحديثةٍ وحُرُوبٍ دمَويّةٍ، تَسَبَّبَتْ في إشْعَــالِ نيران حَرْبَيْنِ عالَمِيَّتَيْنِ في القَرْنِ العشرين أكلتا الأَخْضر واليابس، وقضتا على أرْوَاحِ ملايين البشر. وأمّا السُّؤالُ الذي قد يَبْدُو مُحَيِّراً فهو: (كيف نَجَحَتْ أوروبا بكُلِّ تلك الفُرُوقِ والتّنَاقُضَاتِ في أنْ تَصْنَعَ كِيَانَهَا الاتّحادي المُتَطَوِّرَ المُوَاكِبَ لمُشْكلاته، والمُتَّسِعَ – أفقيّاً ورأْسيّاً –، في الوَقْتِ الذي فَشَلَـتْ فيه تَجَارِبُ العربِ الوَحْدَوِيّة والاتّحَادِيّة بالرّغْم ممّا يَجْمَعُ بين شُعُوبِهَا من رَوابِطِ اللّغَة والتّاريخ والثّقافة والدِّين؟).

إذا كان «الوِجْـدَانُ العربـيُّ» يَحِـنُّ إلــى تلــك «الوَحْـدَةِ الشّامِلَــةِ»، وكان «التَّاريخُ» و«اللّغَــةُ» و«الثّقافةُ» و«الدِّينُ» عناصر مُقَوِّمَاتِهَا، فــإنّ المُشْكلة – إذاً – لا تَكْمُنُ في غِيَابِ الإرادة والرّغْبَــة والحماس، ولكنّها تَتَجَلّى في غِيَــابِ «البِنْيَةِ التَّحْتيّةِ» القَادِرَةِ على إسْنَادِ «التّجْرِبــةِ الوَحْدَوِيّةِ التّكامُلِيّــةِ»، وتَطْويرِ مُعْطياتِها بحيث تُحَافِـظُ على مصالِح الجميع، ويَسْتَفيدُ منها الجميع، وهذا لا يُمْكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ إلاّ في إطَارِ «حَرَكَةٍ تَنْمَوِيّةٍ» أصيلةٍ وَاسِعَةِ النِّطَــاقِ، وعميقةِ التّأْثير. إذا كان مَطْلَـبُ «الوَحْدَةِ» غايةً نِهائيّةً، وطُمُوحــاً قوميّاً، ورُؤْيَةً عمليّــةً، لأهميّــة «التَّكَتُّـلِ الإسْتراتيجيّ» بيــن مُجْتمعاتٍ تــرى وَحْدَتَهَا مُتَجَــذِّرَةً في لُغَتِهَا ودِينِهَــا وجُغْرافيّتِهَا وتاريخِها، فإن هنـاك بالضّرورة، كما يرى يوسف صايغ[11]، (مراتب ومراحِـل يَنْبَغِي اسْتهدافُها تَبْدَأُ بالتّعاون المُنَسَّق، وتَمْتَدُّ إلى التّكامُل، فالانْدِمَاج، لتَنْتَهِي بالوَحْـدَة)؛ وأمّا «مَفْهُومُ التّنْمية العربيّــة» فيَنْبَغِي أنْ: (يَرْتَقِي من مُجَــرَّدِ انْتِقَالِ أنْمَاطِ ومَسَــارَاتِ «التّنْميةِ القُطْرِيّةِ» من حالةِ التّعَارُضِ والتّنَاقُضِ فيما بينها في بعض جَوانِبِهَا، إلى حالةِ عدم التَّعَارُضِ والتّنَاقُض).

وفي هـذا السِّياق تَبْرُزُ «الثَّقافةُ التّنْمَويّةُ» (انْظر: الفَصْل الخامس) بصفتها عَامِلاً يَحْمِـلُ تَوَافُقَاتِهِ وضَوَابِطَهِ وأُطُـرَهِ التي تتجاوزُ الوَاقِعَ القُطْـرِيّ والخُصُوصِيّاتِ المحليّة؛ فـ«التّنْميةُ» هي الهدفُ على المُسْتوى القُطْرِيّ والقوميّ؛ لأنّ حقيقةَ الأَمْرِ كما يُؤَكِّدُ يوسف صايغ[11] هي أنّ: («الوَحْدَة» دون «التّنْمية» تَظَلُّ ضعيفةً ومَهْزُوزةً وعقيمةً دون ثَمَرٍ)، وفي أغْلَبِ الأَحْوال - كما تُؤكِّدُ التَّجَارِبُ العربيّة - تؤولُ تلك «التَّجَارِبُ الوَحْدَوِيّة» الخَالِيَةُ من «الرُّؤيــةِ التّنْمَوِيّةِ» الجَـادّةِ إلى الفَشَلِ والاضْمِحْلالِ والصِّرَاعِ، وكمـا يُؤَكِّدُ يوسف صائغ: (إنّ «الوَحْـدَةَ» لا يُمْكِنُ أنْ تُعمِّرَ طويلاً إذا نَجَمَ عنها إبْطَاءٌ مُسْتَمِرٌّ في مسيرة «التّنْمية»، وخَفْضٌ لأدائها، وخَلَلٌ في بِنْيَتِهَـا). إنّنـا إذا اتَّفَقْنَا مع ما يراهُ لؤي صافي بأنّ: («الثَّقافة النَّاهِضَــة» تتميَّــزُ بخصيصَتَيْنِ رئيسَتَيْــن: ١) القُدْرَةُ على توليد تضامُــنٍ دَاخِلِيٍّ، يَتَمَثَّلُ بتعــاون أَفْــراد المُجْتمع النّاهِضِ، وتلاحُمِهِــم وتكامُل جُهُودِهم. ٢) القُــدْرَةُ على تَحْرِيرِ الطّاقةِ الخَلاّقةِ المُبْدِعَــةِ للفَرْدِ والجماعة، وبالتّالي تَمْكِينُهم من تَطْوِيرِ أدواتِهم وزيادةِ فَاعِليّتِهــم)[16]؛ أقــولُ: إذا اتَّفَقْنَا مع تلك الرُّؤية، فإنّنا نرى أنّ تلك الشُّرُوطَ لا تَتَحَقّقُ إلاّ في إطَــارِ ما عَرَّفْنَاهُ بـ«الثَّقافة التّنْمَويّة» التي تكونُ قَلْبَهَــا ومِحْوَرَهَا «ثقافةٌ عِلميّةٌ» نَشِطَةٌ تتفاعــلُ مع «الحَرَكَــةِ العِلْميّة - التّقنيّــة» مُسْتَقْطِبَةً الجُهُــودِ، ومُطَوِّرَةً للمَــوَارِدِ، وصَاقِلَةً للخِبْرَاتِ، ومُعَزِّزَةً للمهارات.

٩-٥-٢- أ) الوظيفة التّاريخيّة» لـ«الثّقافة العربيّة»:

يــرى محمد عابــد الجابــريّ[59] أنّ «الوظيفة التّاريخيّــة» لـ«الثَّقافــة العربيّة» هي: (وظيفةُ التَّوحيــد المَعْنَوِيّ، الرُّوحيّ والعَقْلِيّ، وظيفةُ الارْتِفــاع بالوطن العربيّ من مُجَرَّدِ رُقْعَةٍ جُغْرافيّةٍ إلى وِعَاءٍ للأُمّة العربيّة لا تكونُ إلاّ به، ولا يكونُ إلاّ بها)، ويتساءَلُ الجابريّ: (كيف العملُ على تَقْوِيةِ وتَنْميةِ هذه الوظيفة التّاريخيّة للثّقافة العربّية حتّى تَسْتطيع الدَّفْعَ بالنُّزُوعِ الوَحْدَوِيّ في الوطن العربيّ خُطُواتٍ حَاسِمَةٍ إلى الأمام وعلى المُسْتويات كافّةً؟).

وأمّا محمد جابر الأنصاريّ[21]، فيرى ضَرورَةَ نُضْجِ «الدّولة القُطْرِيّة» وتَحَوُّلِهَا إلى «مُؤَسَّسَــةِ دَولةٍ حقيقيّةٍ»؛ لكي يكون الطّريــقُ مَفْتُوحاً إلى «الوَحْدَة»، فيقول: (إنّ «الوَحْدَة»

تَمُـرُّ عبْـر تَنْمية وإنْضَـاج «الدَّولـة القُطْرِيّة» وليسـ تَدْميرها، فـ«الوَحْـدَةُ» لن تكون غير حَاصِـلِ جَمْعِ الوَحَدَاتِ القُطْرِيّة، والأصْفَارُ لا تَتَحَـوَّل إلى وَاحِدٍ صحيح، ذلك أنّ الأعْداد الصّحيحـة والسّليمـة والمُتَعَافِيَـة - وحدها - تُنْتِجُ عَـدَداً صحيحاً أكْبر منهـا). وسَواءٌ كان المَسَـارُ على طريـقِ «الوظيفة التّاريخيّة» لـ«الثَّقافة العربيّة» يَبْـدأُ من مَواقِعِ «الدّولة القُطْريّـة»، أو يَنْطَلِقُ من رِحَـابِ «الوَحْدَة العربيّة» الجَامِعَة، فـإنّ أيّاً من ذلك لن يَتَحَقّقَ فـي إطَارٍ سَـوِيٍّ، إلاّ بتَحْقيقِ انْدمَـاجِ «المُواطِن» فـي مُجْتمعه عبْر «التّنْميـةِ» والمُشَارَكَةِ و«التَّجَانُسِ الثّقافيّ» والمَرْدُودِ النّفْعيّ؛ ويَخْلُصُ محمد عابد الجابريّ إلى أنّ: (التّعَارُض بيـن كَوْن «الدَّولة القُطْرِيّة» العربيّة حقيقـةً وَاقِعَةً لا يُمْكِنُ القَفْزُ عليه، وبين ضرورة قيام نَوعٍ جِدّيٍّ من «الوَحْدَةِ العربيّة» لمُوَاجَهَةِ مُتَطَلَّبَاتِ التّقدُّم، تعارُضٌ يُمْكِنُ تجاوزُه لمصْلحةِ هذا الأخير بتَعْميقِ الوظيفة التّاريخيّة لـ«الثّقافة العربيّة» بالصُّورة التي تُمَكِّنُ العرب من الانْخِرَاطِ الجماعيّ الفَاعِلِ في عَصْرِنَا: عَصْرُ العِلْمِ والتِّقانة)[1]. وهكذا تُصْبحُ «الرُّؤيةُ التّنْمَويّةُ»، المُسْتَنِدَةُ إلى فَهْمِ وَاقِعِ العَصْرِ ومُتَطَلَّبَاتِهِ العِلْميّة والتّقنيّة، مَطْلَباً أساساً على طريـقِ تَهْيئَةِ هـذه الوَحَدَاتِ؛ لتكون أعْـداداً مُتَعَافِيَةً وصحيحةً قَادِرَةً علـى تَحْقيقِ وَحْدَةٍ مُتماسِكـةٍ وفعّالَةٍ، ولتُصْبحَ هـذه «الرُّؤيةُ التّنْمَويّةُ» أكْثر دَلالـةً وأشدّ ضرورةً لتجاوز تلك الآفَـةِ المُتَكَـرِّرَةِ في «المُجْتمعـات العربيّة» التي وَصَفَهَا محمد جابـر الأنصاري بـ«القَفْز الخَطِـر في الفَـرَاغِ السّياسيّ» الذي يَفْتَقِدُ: (برنامج العمـل السّياسيّ المُتَحَدِّد والالْتِزام اليوميّ الطّبيعيّ بالتّمَرُّسِ والعطاء المَدَنِيّ والسّياسيّ في مجالاتِها المُحَدَّدَة)[21].

إنّ «قضيّـةَ العـرب مـع السِّياسَـةِ» ذات إشْكاليّـاتٍ تاريخيّـةٍ وجُغْرافيّـةٍ ووجْدانيّةٍ واجْتماعيّةٍ وتُرَاثيّةٍ مُعَقّدَةٍ ليس هنا مقام تَفْصيلها، ولكن مُعَالَجَةَ محمد جابر الأنصاري لهـا تُبَيّنُ أنّ من أخْطـر مَواقِع الخَلَلِ في الحياة العربيّة المُعَاصِرَةِ والطُّرُوحَاتِ الوَحْدَوِيّةِ تلـك «المُفَارَقَـةُ» القَائِمَةُ بين: (قُـوَّة «الرّوابِطِ المَعْنَوِيّـة» في الدِّينِ واللّغَـةِ والشُّعُورِ بين العـرب؛ إلى جَانِبِ ضَعْفٍ شديدٍ في «الرَّوابِطِ المادّية» الوَاقِعيّة بينهم من حيث الارْتباط الحياتـيّ الوَاقِعيّ، المعيشي والعمليّ، في مُخْتلف جَوانِـبِ الدَّولة والاقْتصاد والمُؤسّسات المُشْتَرَكَـة. إنّ العرب يُعَانُونَ من تَضَخُّمٍ في «المَعْنَوِيَّاتِ» مع ضُمُورٍ شديدٍ في «المَادِّيَّاتِ»

المُوَحِّـدَةِ بينهـم)[٢١]. وأمّا زكي نجيب محمود، فقـد أَلْمَحَ إلى هذا «المَـأْزِقِ السِّياسيّ» القديـم - الجديـد قبل حوالي نِصْفِ قَرْنٍ، عندما كتب يقـول: (كَلاًّ يا ابْنتي، لا تَسْأليني عـن أيديولوجيا اليَسَارِ واليَمين، بَلْ اسْأليني عن طريـقِ «النَّظَرِ العِلْميّ» كيف يكون؟ لعلّ شُعَاعـاً منه أنْ يُبَدِّدَ شيئـاً من هذا الظَّلام الكثيفِ الذي ساعد علـى قِيَامِهِ - وأسفاه - نَفَـرٌ مـن قَادَةِ الكلمة مَقْـرُوءَةً ومَسْمُوعَة)[٣٨]. ومَرَّةً أخْـرى - إذاً - تُطِلُّ قضيّةُ «الثَّقافة التَّنْمَويّـة» (انْظر: الفَصْل الخامسِ) - بصفتها وِعَاءً قَادِرًا على تَفْعيـلِ الطّاقات، وخَلْقِ الإنْتاج، وتَطْويرِ المَوَارِد، وتوليدِ عَنَاصِرِ التَّغَلُّبِ على تلك «المُفَارَقَة»، وتَقْويضِ دعائم ذلك الخَلَلِ الذي يَتَرَبَّصُ بمُحاولاتِ «الوَحْدَةِ»، وجُهُودِ توثيق الأَوَاصِرِ بين «الدُّول القُطْرِيّة».

وأمّـا المَخْرَجُ - من هـذا الإشْكاليّات - الذي يَخْلُصُ إليـه محمد جابر الأنصاري فيَتَمَثَّـلُ في «خُطّةِ عملٍ عربيٍّ» أحد أهـمّ دعائمِها: (اعْتمادُ السِّياسَـة العربيّة، والثَّقافة العربيّـة، على الأساس المَعْرفـيّ العِلْميّ للقضايا التي تُوَاجِهُهَـا)[٢١]. وهكذا نَسْتطيعُ أنْ نقـول إنّ نُموَّ «الوَحْـدَاتِ القُطْرِيّة» ونُضْجَهَا لـن يتحقَّقا إلاّ بهَيْمَنَةِ «ثقافـةٍ تَنْمَوِيّةٍ» تكون «العلـوم والتّقْنية» وسيلتَهـا وسَنَدَهَا ووَقُودَهَا؛ وبالتّالي لن تَتَحَقَّقَ تلـك «الوَحْدَةُ العربيّةُ» التـي يَتَغَنَّـى بها العرب، وتَرْقُصُ عليها مَشَاعِرُهُـمْ، وتَتَأَجَّجُ بها عَوَاطِفُهُـمْ، ما لم تكنْ نِتَاجـاً طبيعيّاً لـ«وَحْدَاتٍ قُطْرِيّةٍ» تَعَمَّقَـتْ جُذُورُهَا التّنْمَويّة، وتواصلتْ تفاعُلاتُهَا العمليّة، وتشابكـتْ مَصَالِحُهـا الاقْتصاديّة، وتَوَطَّـدَتْ رَوَابِطُهَا المادّية على أُسُـسٍ عِلْميّةٍ وتقنيّةٍ ومَعْرفيّـةٍ، وانْتَشَرَتْ - بين فِئَاتِهَا المُخْتلفة وشَرَائِحِهَـا المُتباينة - «ثقافةٌ عِلْميّةٌ» نَشِطَةٌ تَشُدُّ من عَضُدِهَا، وتُوَثِّقُ عَنَاصِرَهَا، وتُرْسِي دعاماتِها، وتُؤَلِّفُ بين مُكَوِّنَاتِهَا.

٩-٥-٣) قضيّة الدِّيموقراطيّة:

إنّ الشَّدَّ والجَذْبَ بين الحكوماتِ والشُّعُوبِ ظَاهِرَةٌ أزليّةٌ، فشُعُوبُ أوروبا لم تَكُنْ في عُصُورِهَـا الوسْطى بمَعْزِلٍ عن هذا الصِّرَاعِ والتَّجَاذُبِ، ولكنّ «مِيزان القُوى» لم يَمِلْ إلى صَالِـحِ اسْتِقْرَارِ «المُؤَسَّسَاتِ الدِّيموقراطيّة» وتطوُّرِهَا، إلاّ عندما اسْتَقَرَّتْ «سفينةُ العلوم والتّقْنيـة» عنـد مَرْسَى الإنْتاج والتّطْوير والابْتـكار. وحقائِقَ التّاريخ تُؤَكِّـدُ أنّه كُلّما ازداد

وَعْـيُ الشُّعُوبِ بقُدْرَاتِهَـا الكَامِنَةِ في صُنْعِ حياتِهـا ومُسْتَقْبَلِهَا، وارْتَفعَـتْ مهاراتُها، ونما رصيدُهـا الإنْتاجيّ، مال «مِيـزانُ القُوى» إلى صَالِحِ الشُّعُوبِ فـي ضَبْطِ الأداءِ الحكوميّ، وتَحْديدِ مَسْؤوليّات الحكومة، ووَاجِبَاتِ الدَّولة، وحُقُوقِ المُواطِن. إنّ هذا الوَعْيُ، المُنْبَثِقُ عـن مُقوِّمَاتِ «العِلْمِ والتّنْميةِ والإنْتاج»، يَتَسَلَّلُ - بالضّرورة - إلى الأجْهِزَةِ الحكوميّة على مُخْتلِـف الأصْعِدَةِ والمُسْتويات؛ لأنّه من البدهيّ أنّ العَامِليـن في هذه الأجْهِزَةِ، وصَانِعِيّ القَـرَار، هم نِتَـاجُ لمُجْتمعاتِهم، ويتفاعلون مـع وَعْيها وثقافتِهـا وإبْداعاتِها، وهذا الوَعْيُ المُشْتَـرَكُ والمُتنامِـي بين الحكومـةِ والشَّعْبِ هـو خير ضَامِـنٍ لـ«التّنْميـة المُسْتَدامَة»، و«الاسْتِقْـرَارِ الشَّامِل»؛ وهذا يَعنِـي أنّ التَّحَوُّلَ إلى «الدِّيموقراطيّـة» لا يَنْشأُ من عَدَم، أو يَتَحقَّـقُ بضَغْطَةِ زرٍّ، ولكنّه مَرْهُونٌ بشُرُوطٍ تَعْليميّةٍ وثقافيّةٍ وإنْتاجيّةٍ، ومُرْتَبِطٌ بمُسْتوياتٍ لائِقَـةٍ من الرَّفَـاهِ والإبْدَاعِ والعَقْلانيّـة. وفي ظِلِّ «ثقافـةٍ تَنْمَويّةٍ» يُحَرِّكُهَـا دينامو «العِلْمِ والتّقْنيـة»، سيصوغُ كُلُّ مُجْتمـعٍ - وفْقَ هُويّتِهِ وتاريخِهِ ومُعْطياتِـهِ وقِيَمِهِ - ذلك النَّوْعَ من «الدِّيموقراطيّة» الذي يُحَقِّقُ «التَّوَازُنَ» بين «التَّغْيير» و«المُشَارَكَةِ الفَاعِلَة»، وبين «الفَوْضَى» و«الانْفِلاتِ الكَارِثيّ».

بإيجـازٍ، نَسْتطيعُ أنْ نقـول إنّ هناك شَرْطَيْـنِ لازِمَيْنِ لتَشَـكُّلِ «الدِّيموقراطيّة» في المُجْتمـع، ولتَحْقيـقِ مُمَارَسَتِهَـا الإيجابيّة من قِبَلِ أفْـراده؛ أوّلُهما: «شَـرْطٌ قَبْلِيٌّ» يَنْبَغِي تَوَافُـرُهُ - ابْتداءً - ليُسْهِمَ في تَخَلُّقِ «الدِّيموقراطيّـة» واسْتِقْرَارِهَا في المُجْتمع، وهو تَنَوُّعُ الفُرَصِ الإنْتاجيّـةِ للمُواطِن، وتَعَدُّدُهَا - كمّاً وكَيْفاً -؛ ليكون لهـذه الفُرَصِ دَوْرٌ فَاعِلٌ في تَحْقيـقِ بيئةِ رَخَاءٍ عامٍّ يَسْعَى الجميع إلى المُحَافَظَةِ عليهـا وتَنْميتِها؛ لأنّ لكُلٍّ منهم فيها نَصيباً، وكُلٌّ منهم غَارِمٌ بجُهْدِهِ، وغَانِمٌ بمَكَاسِبِهِ. وهذا «الشَّرْطُ القَبْلِيّ» لا يَتَحَقَّقُ إلاّ في بيئةٍ نَشِطَ فيهـا «الفِكْرُ العِلْميّ»؛ ليُعَمِّقَ «آليّاتِ العِلْم» و«وَسَائِلَ التّقْنية» و«أدواتِ الإنْتاج»، ويُشْرِكَ العَدَدَ الأكْبرَ من أفْرَادِ المُجْتمع في سِيَاقَاتِهِ وأنْمَاطِهِ وحَرَاكِه.

وأمّـا «الشَّـرْطُ الثّانـي» فهو «شَـرْطٌ بَعْـدِيٌّ» يَتَطَلَّـبُ وَعْياً بـ«رُوحِ العَصْـرِ» وأنْوَاعِ «التَّحَدِّياتِ» وأشْكَالِ «الاسْتِجَابَةِ» المَطْلُوبَةِ لها؛ لأنّه الضّامِنُ لاسْتمراريّةِ «الدِّيموقراطيّة»، ومُمَارَسَتِهَا الفَاعِلَةِ، وتَطْويرِ آليّاتِ «المُشَارَكَةِ الجماعيّة». وهذا «الشَّرْطُ البَعْدِيّ» يَتَطَلَّبُ

- أوّل مـا يَتطَلَّبُ - انْتِشَارَ «ثقافـةٍ علْميّةٍ» وَاسِعَةِ النِّطَاقِ؛ تَسْتَوعِـبُ المُتَغيِّرَاتِ، وتَضْبِطُ إيقَاعَـاتِ «التَّفاعُـلِ الإيجابـيّ»، وتَدْفَـعُ بالإبْدَاعِ والمَوَاهِـبِ لتَطْويرِ عطـاءاتِ المُجْتمع، وتَأْسيسِ «اقْتصـاد المَعْرِفَـة» الذي تُؤسِّسُـهُ العَنَاصِـرُ البشريّةُ في «مُجْتمـع المَعْرِفَة»، وتُطَـوِّرُهُ المُؤسَّسَـاتُ الوطنيّةُ القَادِرَةُ علـى اكْتِسَابِ «المَعْرِفَةِ» -الحاليّـة والمُستقبليّة - واسْتِيعابِهـا وإنْتَاجِهـا ونَقْلِها وتَسْويقِهـا - بفعّاليةٍ وكَفَاءَةٍ - لرَفْعِ درجـة النُّموِّ، وتَحْسين القُـدْرَاتِ التّنَافُسِيّـة. وهذا ما نَوَّهَ بـه التّقْريرُ الأمريكيُّ المَوسُومُ «التَّعْليـمُ لعَصْرِ العِلْمِ» الـذي صدر في عهْد الرئيس آيزنهاور حيـث ورد فيه: (يَنْبَغِي للمُواطِنين - في «المُجْتمع الدِّيموقراطـيّ» اليـوم - فَهْمُ العلـوم؛ ليتمكّنُوا مـن المُشَارَكَـةِ الدِّيموقراطيّـةِ الوَاسِعَةِ والوَاعِيَـةِ في العديد من القرارات القوميّة)(٤٤)؛ وأمّـا جلين سيبورج، فيرى: (إنّ مبادئ العلـوم تُهَيْمِنُ على العديد من قضايا اليوم والغد؛ فـإذا كان جَوْهَرُ الدِّيموقراطيّة - كما أَعْتَقِـدُ - هو مُمَارَسَةُ التَّأثير بوساطة النّاس المُطَّلِعِين، فإنّ هذا يَعْنِي أنْ تكون المبادئ البسيطة للعلوم مُتأسِّسَةً على نِطَاقٍ وَاسِعٍ في المُجْتمع)(٤٤).

وهكـذا نجـدُ أنّ «الدِّيموقراطيّة» ليستْ آليّةً تُسْتَوْرَدُ، ولكنّهـا تَجْرِبَةٌ تَصُوغُهَا الأُمّةُ من وَاقِعِ ثقافتِها ومَوْرُوثِهَا وتفاعُلاتِهـا وتَجَارِبِهَا، و«الدِّيموقراطيّة» تَتَحَرَّكُ - بالضّرورة - دَاخِـلَ «آليّـات التَّنْمية»، وتَنْمُو في رَحِمِهَا، وتَتَبَلْوَرُ عبْـر تفاعُلاتِها، حيث المَطْلَبُ - في الحَالَتَيْـن: القَبْلِيّة والبَعْدِيّة - هو «المُشَارَكَـةُ الجماعيّةُ الواعيةُ» على مُخْتلف المُسْتويات لتَحْقيـقِ ذلـك «المُجْتمـع المَعْرِفيّ» الـذي يَقْتَنِصُ فُرَصَ «الزَّمَـان»، ويُـدْرِكُ مُعْطياتِ «المـكان»، ويَسْتَنِـدُ - في صِياغَةِ مُقَوِّمَاتِهِ - إلى «تَوَافُقٍ تَنَمَـوِيٍّ»، ورُؤىً مُتَجَدِّدَةٍ، وثوابت هي كالرَّواسِي تَمْنَعُ أَرْضِيَّةَ المُجتمعِ أنْ تَميدَ بأَهْلِهَا.

٩-٦) حالة «القُصور الذّاتيّ»... إلى متى؟

سعينـا بين طَيَّاتِ هذا الكِتَابِ إلـى تَأْكيدِ «الوَجْهِ الثَّقافيّ للعلوم والتّقْنية»، وضَرورةِ مُوَاكَبَتِـهِ للحَـرَاكِ الثّقافيّ والمُجْتمعـيّ؛ لتَعْزيزِ أداءِ «العلـوم والتّقْنية»، وفَتْـحِ فُرَصِهَا، واسْتكشـافِ آفاقِها، وتَعْميقِ آليّاتِها في المُجْتمع. وهـذه الحقائِقُ تُؤكِّدُهَا تَجَارِبُ «الدُّول

المُتَقَدِّمَـة» ونجاحاتُها، وتُعَمِّقُهَا مُعَانَـاةُ «الدُّول النَّامية» وتَعَثُّرُهَـا، ويُمْكِنُ اخْتِصَارُ هذه الحقائِـق في أنّ «إشْكَالِيّـةَ التّنْمية» تَتَفَاقَمُ عندما نُهْمِلُ حقيقـةَ أنّ «العلوم والتّقْنية» هي فِكْرٌ وثقافةٌ وطريقةُ حياةٍ، قبل أنْ تكون أدواتٍ نَسْتَوْرِدُهَا، أو أَجْهِزَةً نَسْعَى إلى تَصْنيعها؛ فهنــاك شُـرُوطٌ أخْلاقيّــةٌ وعَقْليّةٌ وقيميّــةٌ وثقافيّةٌ لازِمَــةٌ للإنْسان لكي يَدْلِـفَ إلى عَالَم «صِنَاعَـةِ الحضارة المُعَاصِرَة»، ويَسْتَوْعِبَ عَنَاصِــرَ التّقَدُّم والتّطَوُّر، فكما يقولُ علي علي حبيشــن: (إنّ مَوْقِـفَ المُجْتمــع والأفْراد تِجَـاهَ الإبْـداع والابْتكار والتّغْييــر والإصْلاح هي عَنَاصِرُ أساسيّةٌ للتّنْمية والتّقَدُّم العِلْميّ)(٣٩).

لقــد أُهْمِلَ «البُعْدُ الثّقافيّ» فــي التّفاعُلاتِ الثّقافيّة، والخُطَـطِ التّنْمَويّة، والبرامِج الاجْتماعيّة فــي العَالَم العربيّ؛ ممّا أثّرَ سَلْباً في قضايا تَحْفيزِ الابْتكارات، ودَفْعِ «البَحْثِ العِلْميّ»، و«توطين التّقْنية»، وتأْصيلِ «التّنْمية»، وتَطْويرِ «التَّعْليم». إنّه من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنّ «مَنْظُومَـةَ العلـوم والتّقْنيــة» ليستْ مُجَرَّدَ عَابِـر سبيلٍ يُنْجِزُ مُهِمّتَـهُ ويَمْضِي إلى حال سبيلـه، ولكنّها أُسْلوبُ حياةٍ، وطريقــةُ تَفْكيرٍ، ومَنْهَجُ عملٍ، ويَنْبُوعُ ثقافــةٍ؛ فقُدْرَتُهَا على الإنْجازِ تتناسبُ طَرْدِيّاً مع قُدْرَتِهَا على التَّحَوُّلِ إلى «ظَاهِرَةٍ اجْتماعيّة» تَحْتَلُّ مَوْقِعاً قِياديّاً فــي ثقافة «الإنْسان المُعَاصِــرِ» ووَعْيِه وسُلُوكِه. وإذا كان عَدَدٌ كبيــرٌ من المُثقّفين العرب يــرى ما يراه محمــد عابد الجابريّ(٦٧) بأنّ أبْرز عُيُوب «الثّقافة العربيّة» هي أنّها «خِطَابُ وِجْدَانٍ» وليستْ «خِطَابَ عَقْلٍ»، فإنّ الطّريقَ الأبْرَزَ لتَحْويلِ «خِطَابِ الوِجْدَانِ» إلى «خِطَابِ العَقْــلِ»، والانْتِقَالِ من «مَرْحلة الانْفِعَالِ» إلــى «مَرْحلة الفِعْلِ»، إنّما هو عبْر تَنْميةِ «الثَّقافة العِلْميّــة» وأُسُسِهَــا المَعْلُوماتيّــة، ومَنْهَجِهَا التّجْريبــيّ، ومُقَوِّمَاتِهَا الفِكْريّــة، وعَنَاصِرِهَا العَقْلانيّة، وضَوابِطِهَا الصّارِمَة.

أَدْرِي أنّ (النَّاســ أعْـدَاء مــا جَهِلُوا)، ولكن «العلــوم والتّقْنية» أَصْبَحَــتْ ضَرورةً لا مناص منها؛ وبالتّالي، فإنّه يَنْبَغِي أنْ يكون على رأْس الأولويّات الوطنيّة - في المُجْتمعات العربيّــة - الاهْتمام بوَضْــعِ البرامِج والإسْتراتيجيّات للتَّغَلُّب على ذلــك الجَهْلِ، وتَقْليصِ مِساحــة ذلك «العَدَاءِ الخَفِيّ»، وتوليــدِ عَنَاصِر «التَّفاعُلِ الإيجابيّ» مــع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التي أَصْبَحَتْ - دون جِدَالٍ - قضيّة «حياةٍ أو مَوْتٍ» للأُمّة.

أَدْرِي أنّ من سُنَنِ الله «ظَاهِرَةَ القُصُور الذّاتيّ» الفيزيائيّة التي تَسْرِي على الحَجَرِ، وتَنْطَبِقُ على البَشَرِ، وهي ظَاهِرَةٌ طبيعيّةٌ يُوَضِّحُ أبْعَادَهَا «القانونُ الأوّلُ لنيوتن للحَرَكَة» في الفيزياء الذي يَنُصُّ على أنّ: (الأجْرام في الطَّبيعة تُقاوِمُ التّغْيير، وتَميلُ إلى البَقَاءِ على حالتِها، ما لم تُؤَثِّرْ فيها قُوىً خَارِجيّةٌ تُجْبِرُهَا على تَغْيِيرِ هذه الحالة). ولا شَكَّ في أنّ هذا الحال سُنَّةٌ كونيّةٌ تَنْطَبِقُ على البَشَرِ - أيضاً -، حيث يكون هناك دائماً مَيْلٌ بَشَرِيٌّ للاسْتِمْرَارِ على ما أَلِفَهُ الإنْسان، ولذا فإنّ التّمَسُّكَ باسْتِمْرَارِ الوَضْعِ، والتّخَوُّفِ من التَّغْيير، قد يَأْتِيَانِ مُتَلَبِّسَيْن بأعْذَارٍ مُخْتلفةٍ، ومُبَرِّرَاتٍ مُتنوِّعَةٍ، إلاّ أنّ مُعْظَمَهَا يَنْبُعُ - في الوَاقِعِ - من «ظَاهِرَةِ القُصُورِ الذّاتيّ».

في ضوء تلك الظَّاهِرَةِ، التي تَتَلَخَّصُ في «مُقَاوَمَةِ التَّغْيير»، نجدُ أنّ «التَّغْيير الثَّقافيّ» هو أصْعَبُ أنْواع التَّغْيير، ولكن لا خِيَارَ أمام الأُمّة إزاء تحدِّيات «الأَلْفيّة الثّالثة»؛ فـ«المُسْتَقْبَلُ» مُرْتَبِطٌ - بالضّرورة - بالمُصَالَحَةِ مع «العلوم والتّقْنيـة»، والإسْهَام في فِكْرِهَا ومُعْطياتِها وأدواتِها، والاسْتِيعاب الكَامِلِ لمُقْتضياتِها وشُرُوطِهَا. ولا شَكَّ في أنّ مِثْل ذلك «التَّغْيير» يَسْتَوْجِبُ تَكْثيفُ جُرْعَاتٍ مُسْتمرّةٍ من «التّفْكير العَقْلانيّ» و«التَّوعية العِلْميّة» في المناهِجِ والحِوارات والوسائل الإعْلاميّة والقرارات المُخْتلفة والإسْتراتيجيّات المُتنوِّعَة، ولا مناص - إنْ أردنا النّجاة - من دَعْم هذا التَّوَجُّه من أعْلى المُسْتويات ليكون «قَرَاراً سِياسِيّاً» فَاعِلاً في إطَارِ «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَوِيّـةٍ» حيويّةٍ تَسْتَجِيبُ لطُمُوحَاتِ الأُمّة، وتَسْتَطِيعُ توليد «الدَّفْع الذّاتيّ» القَادِرِ على التّصدّي للتّحدّيات المُعَاصِرَة.

إنّنا نجد - في سِيَاقِ هذا الكِتَابِ - أنّ المُفكِّرين والمُثقّفين العرب يقفون أمام «أَزْمَـةِ النّهْضَة»، و«إشْكَاليّةِ التّنْميـة»، في عُمُوميّاتٍ بدهيّةٍ تَسْتَهْلِكُ نفْسها، ومُرَاجَعَاتٍ نَقْدِيّةٍ تُكَرِّرُ ذاتها، وقِرَاءَاتٍ مَاضَوِيّةٍ تَجْتَرُّ حُمُولَتَهَا، واسْتِلْهَامَاتٍ مُسْتَقْبَلِيّةٍ تُعَمِّمُ اسْتنتاجاتِها، وتوظيفاتٍ اصْطلاحيّةٍ تزيدُ الطِّينَةَ بِلَّة؛ ولكنّهم - في نهاية المطاف - يقفون - بكُلِّ التّقدير والإعْجاب - أمام صَرْحِ «العلوم والتّقْنية» الذي يَبْقَى - أمام كُلِّ أُطْرُوحاتِهم ونَقْدِهم وانْبِهارِهم - مُجَرَّدَ «صُنْدُوقٍ أسْودَ» مُغْلَقٍ يَحْمِلُ أسْرَارَ الحُلُولِ ولكنّنا لا نَمْتَلِكُ مفاتيحه، ويَبْدُو أنّنا - أيضاً - لم نَتَعَرَّفْ بعْد على الطّريق الذي يقودُ

إلــى حِيَازَةِ تلك المفاتيح، وعلينا أنْ نَطْرَحَ - في كُلِّ مَحْفَلٍ ومُؤتمرٍ وجامعةٍ ومرْكز بُحُوثٍ واجْتمــاعٍ لصُنَّاعِ القرار- السُّؤال التّالي: (بعد الإشــادة بـ«مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية»، هل هَيَّأْنَــا لها «البيئَةَ المُنَاسِبَةَ» التي تُصَادِقُهَــا، وتُعِينُهَا، وتُؤصِّلُهَا في أَعْمَاقِ الكِيان الفِكْريّ والثّقافيّ والإعْلاميّ والاجْتماعيّ والتّعْليميّ؟).

مــن المُهِــمّ أنْ نُتَرْجِــمَ كُلَّ الشِّعَــارَاتِ - التــي نَزُجُّ بهــا في المحافِل حــول ضَرورةِ «التَّوعيــة العِلْميّــة»، وأهميّةِ اللّحَاقِ بالرّكْبِ التّقنيّ، والقضــاءِ على التَّخَلُّفِ - إلى تجارِب مُتَرَاكِمَةٍ، وآليّاتٍ مَلْمُوسَةٍ، وإسْتراتيجيّاتٍ مَدْرُوسَةٍ؛ لتَصْنَعَ «ثقافة المُسْتَقْبَل» المُتَنَاغِمَةَ مــع مُتَطلَّبَاتِ «التّنْميــة»، والمُتَفَاعِلَةَ مــع «رُوحِ العَصْر». ومن المُهِمّ - أيضــاً - أنْ نُدْرِكَ أنّ القضيّــة ليســتْ خِيــاراً يَجُوزُ فيــه الأَخْذُ والعَطَــاءُ والجَــدَلُ والعِنَادُ، ولكنّهــا ضَرورةٌ أساسٌ بدونهــا يَصْعُبُ تخيُّلُ صِنَاعَةِ مُجْتمعٍ قَادِرٍ على الأَخْــذِ بأَسْبَابِ «التَّنْمية» والرَّفَاه؛ فـ«مُجْتمــعُ المَعْرِفَــة» الذي نَطْمَــحُ إليه يَتَكَوَّنُ مــن مُصْطَلَحَيْــنِ مُترابِطَيْــنِ ومُتَكامِلَيْن، وهمــا «مُجْتمع» و«مَعْرِفَة»؛ ليكــون أساس تَكْوينه هو «التَّفاعُلُ المُجْتمعــيّ» مع «المَعْرِفَةِ»، و«التَّوَاصُــلُ المَعْرفيّ» مع «المُجْتمع»، وليكون الشِّعَارُ الأَكْثَرُ مُواءَمَةً لوَاقِعِ «الأَلْفيّة الثّالثة» هو: («الثَّقافةُ العِلْميّةُ» هي الطَّريقُ إلى التَّأْهيلِ لـ«مُجْتمع المَعْرِفَة»).

٩-٦-١) إشْكَالِيّة «الثقافة العِلْميّة»:

أمّــا «إشْكَالِيّــةُ الثّقافــة العِلْميّة» في «المُجْتمعــات العربيّة»، فهــي الإشْكَالِيّةُ نفْسها الموجودة في حــالات كثيرٍ من المعاني والقِيَم الجوهريّة في حياة هذه المُجْتمعات، وهي تدورُ حول السُّؤالِ السّرْمَديّ: (كيف نُتَرْجِمُ «الثّقافة العِلْميّة»، و«المُوَاطَنَة»، و«الوَسَطِيّة»، و«أَخْلاقيّــاتِ العمــل»، و«توطيــن التّقْنيــة»، إلى وَاقِــعٍ عملــيٍّ مَلْمُوس؟، وكيــف نَنْقُلُ تلك المفاهيــم من صَفَحَاتِ التّنْظير، وبُطُونِ الكُتُب، وقاعــاتِ المُؤتمرات، ومَحَاضِرِ اللّجان، إلــى مُمَارَسَاتٍ مُفْعَمَةٍ بالنّشاطِ والحيويّةِ والتَّطَوُّر؟). ولا بُدَّ أنْ نَتَّفِقَ هنا على أنّ أيّ جُهْدٍ فَرْديٍّ، أو مُؤَسَّسِيٍّ، في اتِّجَاهِ «الثَّقافة العِلْميّة»، هو جُهْدٌ مَشْكُورٌ ومُحَبَّذٌ يُسْهِمُ في «العمليّة التّراكُميّــة»، إلاّ أنّ المُجْتمعــات الطَّمُوحَة تَتُوقُ إلى اخْتِزَالِ الوَقْــت، والاسْتِفَادَةِ القُصْوى

مـن المَـوَارِد، والإسْراعِ في إحْـدَاثِ «النَّقْلات النَّوْعيّة» في تفاعُلاتِهـا وإنْجازاتِها؛ وهذا لا يَتحَقَّـقُ، إلاّ في إطَـارِ «قَرَارٍ سِياسِيٍّ» يَتَبَنَّـى إسْتراتيجيّةً وَاضِحَةَ الأَهْـدَافِ والمَعَالِم، ويُوَظِّـفُ - بجِدِّيّـةٍ - الآليّـاتِ والوسائلِ الفَاعِلَة، ويُكَرِّسُ المُتَابَعَةَ المُسْتمِـرّة للتّصْحيحِ والتّقْويمِ والتّطْوير، ويَغْرِسُ القَنَاعَاتِ المُلائِمَةَ لتُهَيْمِنَ على العَقْلِ والوِجْدان. وهكذا تَبْقَى مُعْظَـمُ مُشْـكلات «المُجْتمعات العربيّة» - إنْ لم تكنْ كُلُّها - دون حُلُولٍ نَاجِعَةٍ بالرّغْم من تَوَافُـرِ المَوَارِدِ الماديّة والماليّة والبشريّة، وتَبْقَـى إسْتراتيجيّاتها أَحْبَاراً على أوراقٍ تَلْتَفُّ حـول ذاتها في سَطْحِيَّةٍ مَمْجُوجَةٍ غير قَادِرَةٍ على الغَوْصِ في دَقَائِقِ المُعْضِلاتِ وتفاصيلِ آليّـاتِ العمل، وتَتَمَثَّلُ طُرُوحَاتُهَا في مُعَالَجَاتٍ تُفْلِحُ فقط في عَزْلِ الظَّواهِرِ عن مُكَوِّنَاتِهَا، وتَجْريدِهـا مـن أَسْبَابِهَا، عبْر مـا تميَّزَتْ به «الثَّقافـةُ العربيّةُ» من انْفعـالاتٍ وإنْشائيّاتٍ وكلاميّات (انْظر: الفَصْل الثّالث).

وأمّـا المَخْرَجُ من الأَزْمَةِ لدى محمـد عابد الجابريّ فيَكْمُنُ في: (قِيام «إنتلجينسيا عربيّـةٍ جديـدة»: عربيّـةٍ بانْتظامِها في التُّـرَاثِ العربـيّ لتَجْديدِه من الدّاخِـل، وجديدةٍ بانْتظامِهـا في «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِـر»، ومُوَاكَبَتِهَا له، بقَصْدِ توظيف أدواته المَنْهَجِيّة ورُؤاه العِلْميّـة فـي إعادة بِنَاءِ الماضـي وتَغْييرِ الحَاضِرِ وتَشْييـدِ المُسْتَقْبَل. إنّه دون هذه «النُّخْبَـة الإنتلجينسيـا» سيَبْقَـى الفِكْـرُ العربيُّ سَجِين المعـارِف القديمـة يَجْتَرُّهَا على أنّهـا جديـدةٌ، وسيظلُّ يُعانِي ليس أَزْمَـةَ إبْدَاعٍ فقط، بَلْ لربّما من سَكَـرَاتِ المَوْتِ وخَطَرِ الانْقراض)[1]. وفي هذا السِّيَاق، نَسْتطيعُ أنْ نقول - بكُلِّ ثِقَةٍ - إنّه لا يُمْكِنُ لأيِّ بَاحِثٍ نزيهٍ أنْ يَنْـزَعَ «الثَّقافة العِلْميّة» ودَوْرَهَا المِحْوَرِيّ من خَصَائِصِ «الفِكْرِ العَالَميّ المُعَاصِر»، ولا يُمْكِـنُ لأيِّ مُفكّرٍ موضوعيٍّ أنْ يَغْمِطَ حَقَّ «المَنْهَـجِ العِلْميّ» في تَصَدُّرِ الأدواتِ المَنْهَجِيّة، والرُّؤى العِلْميّة القَادِرَةِ على «إعادة بِنَاءِ الماضي وتَغْييرِ الحَاضِرِ وتَشْييد المُسْتَقْبَل».

وللتَّغَلُّـبِ على حالة «القُصُورِ الذّاتيّ» التي تُهَيْمِنُ على الوَاقِعِ العربيّ، فتُكَبِّلُهُ بالعَجْزِ التّنْمَـويّ والشَّلَـلِ الثّقافـيّ، فإنّنا نَحْتَاجُ إلـى تَشْخيصِ الحالـة، والتَّعَرُّفِ علـى مَطَالِبِ المُسْتَقْبَـل، وقـد نَخْتَلِفُ حول بعضها، وقد نَتَّفِقُ في مُعْظَمِهَا، ولكنّـي أَجْزِمُ بأنّ «التَّحَدِّي العِلْميّ - التّقنيّ» يَكْمُنُ في جوهر أيٍّ من تلك المَطَالِبِ؛ فلو أخذنا - على سبيل المِثال -

المَطَالِـبَ التي حَدَّدَهَا محمد عابد الجابريّ، وطَرَحَهَا فيمـا أَسْمَاهُ «المَشْرُوعُ الحضاريّ العربـيّ» الذي يَنْزَعُ إلى: (تَحْقيق هذه الأهْـداف الثّلاثة: الوَحْدَة، التَّمَدُّن، العَقْلَنَة)(١)، فإنّنـا نجدُ - كمـا أَسْهَبْنَا في هذا الكِتَابِ - أنّ في أساس كُلٍّ منها تَكْمُنُ قضيّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» التي تُعَزِّزُ «التَّجَانُسَ الثَّقافيّ» المُتَنَاغِمَ مع «رُوحِ العَصْرِ»، وتُزَوِّدُ المُجْتمع بالوَقُودِ الـلاّزِمِ لتَحْقيـقِ تلك الأهْداف، وتُسْهِمُ - بشَكْلٍ أساسٍ - فـي تَفْعيلِها، وضَخِّ دِمَاءِ الحياة في عُرُوقِ مساراتِها.

لقـد نَظَرَ جلن سيبـورج إلى «المُجْتمـع الأمْريكيّ» فـي أوائِلِ السّتينـات من القَرْنِ العشْريـن، وقال: (في العَقْدَيْـنِ الماضِيَيْنِ اسْتطاع مُجْتمعُنـا أنْ يَلْتَهِمَ العلوم، ولكنّه لم يَتَمَكَّـنْ بعـد من هَضْمِهـا، وهذا مُؤَشِّرٌ على طُفُولَـةِ «المُجْتمع العِلْمـيّ» لدينا، وهذا ليس بمُسْتَغْـرَبٍ؛ فتَجْرِبَتُـنا السَّابقةُ لـم تُهَيِّئْنَا لأيِّ شَـيءٍ قريبٍ من «الانْفِجَـارِ العِلْميّ» الذي حـدث في العشريـن عاماً الأخيرة، ويجب أنْ نَتَوَقَّعَ أنْ تكون العشـرون عاماً المُقْبِلَةُ أكْثر ديناميكيّةً، وهذا - بالضّرورة - يَسْتَوْجِبُ الإسْراعَ في «عمليّة الاسْتيعَاب»)(٤٤). وإذا كان «المُجْتمـع الأمْريكيّ» - بكُلِّ انْجازاتِه ونجاحاتِه - يعيش مَرْحَلَةَ «طُفُولَةِ المُجْتمع العِلْميّ» - علـى الأقـلّ في فتْرة السّتينات وفْق تَحْليل سيبورج -، فما بالُكَ بـ«المُجْتمعات العربيّة» التـي ما زالتْ تَرْزَحُ تحت نِيـر «الأُمِّيّة العِلْميّة»، وتَقْبَعُ في خَانَةِ الاسْتِهْلاكِ والاسْتِجْداء؟. وأمّا النّتيجةُ البدهيّةُ لهذا التّحْليل، فهي أنّ «المُجْتمع العِلْميّ» لم يُولَدْ بعْد في «المُجْتمعات العربيّـة»، وإنْ كانـتْ هنـاك مُؤَشِّرَاتٌ لمَخَاضٍ أليم فـي أَتُونِ صِرَاعَاتٍ بيـن متُنَاقِضَاتٍ عميقـةٍ وسَلْبيّـاتٍ مُتَرَاكِمَة. وفي إطَارِ التّفـاؤل نقول إنّ من «المُؤَشِّـرَاتِ الايجابيّة» لهذا المَخَاضِ، هو تَرَاكُمُ أعدادٍ وفيرةٍ من أصْحَابِ المهارات التّقنيّة والقُدْرات العِلْميّة، وبُروزُ اهْتمامٍ مُتنامٍ بدَوْرِ «الحَرَكَة العِلميّة» في تَحْسينِ وَاقِعِ الأُمّة وتَطْويرِ حياتها؛ وكُلُّها تَجْعَلُنَا فـي انْتِظَـارِ وِلادَةِ «مُجْتمع المَعْرِفَة» فـي العَالَم العربيّ، وبطبيعة الحـال فإنّنا نَتَطَلَّعُ إلى وِلادَةٍ طبيعيّـةٍ، وإنْ كان ولا بُـدَّ فلا مَانِعَ من تَدَخُّـلِ المِشْرَطِ فـي وِلادَةٍ قَيْصَرِيَّةٍ، ولكنّنا نخـافُ - أكْثـر ما نخافُ - مـن إجْهَاضٍ مَأْسَـاوِيٍّ، أو أنْ تكون القضيّـة برُمَّتِهَا عَلامَاتِ «حَمْلٍ كَاذِبٍ»!.

٩-٧) نحوَ «عَقْلَنَة الثقافة»:

مـن البدهيّاتِ أنّ «التّنْمية» تَسْتَهْدِفُ حياةَ «الإنْسـان» وتَطوُّرَهَا، ومن البدهيّات أنّ «الثَّقافة» تُعْنَى بفِكْرِ «الإنْسان» ومُمَارَسَاته، ومن البدهيّاتِ - أيضاً - أنّ «العِلْمَ الطّبيعيّ» هـو صَاحِبُ الرّيادة في تَغْييـرِ أنْمَاطِ الحياة، وتَطْويـرِ قَوالِبِ العَيشـ، وتَأْسيسِ مَنْهَجيّةِ التَّعامُـلِ مـع الكَوْنِ وفَهْمِ قوانينــه؛ ولذا فإنّ الانْفِصَــامَ بين عَنَاصِرِ «الثَّالُـوث التّنْمَويّ»: (التّنْميــة - الثَّقافــة - العِلْــم)، يُعْتَبَرُ وَصْفَــةً نَاجِعَةً للعَجْــزِ التّنْمَويّ، والتَّــرَدِّي الثَّقافيّ، والتَّوَتُّرِ الاجْتماعيّ، والتَّخَلُّفِ العِلْميّ، والابْتِعَادِ عن «رُوحِ العَصْر». إنّ الغُرْبَةَ، التي يعيشُها «الإنْســانُ العربيُّ» عــن عَصْرِه، التي تَتَجَلَّى فــي عَجْزِهِ الفَاضِحِ عــن الإسْهَامِ الفَاعِلِ في صِنَاعَةِ «مفاتيح العَصْر»، وانْكِبَابِهِ المُخْجِلِ على اسْتِهْلاكِ مُعْطياتِ الآخَرين ومُنْتَجَاتِهِمْ، ليستْ إلاّ التّعْبير الطّبيعيّ لفشل التَّلاقُح بين عَنَاصِرِ هذا «الثَّالُوث»، وهي عَنَاصِرُ أَصْبَحَتْ - بالضّرورة - تَخْتَزِلُ العناوين الرّئيسة لكُلِّ معاني «الحضارة المُعَاصِرَةِ» والتّطَوُّرِ الفَعّالِ في حياة «مُجْتمعات الأَلْفيّة الثّالثة».

يقــول شَاعِرُنَا إنّ: (الفَرَاغ مَفْسَدَةٌ)، ولكــنّ «الفَرَاغَ التّنْمَوِيّ» - في فضاءاتِ الوَعْيِ العــامّ - هو أَسْوأ أنْــوَاعِ الفَرَاغ، حيث تَنْعَدِمُ الإنْتاجيّة، ويَفْقِـدُ المُجْتمعُ بَوْصَلَتَه، ويَرْضَخُ لشُــرُوطِ الآخَرين القَادِرينَ على الإنْتَاجِ والإبْـدَاعِ والتّطْوير، ومن ثمّ تَتَخَبَّطُ جُهُودُ النّاس ومَشَاعِرُهُــمْ، وتَتَضَارَبُ مَصَالِحُهُــمْ واهْتماماتُهم، وتَتَعَمَّـقُ إحْباطاتُهم وهزائِمُهم. من المُهِمّ أنْ نُدْرِكَ أنْ لا مَخْرَجَ من هذا «المَأْزِق»، إلاّ عبْر «إسْتراتيجيّةٍ تَنْمَوِيّةٍ شَامِلَةٍ» يكون أحد أَرْكَانِهَا الأصيلة «إسْتراتيجيّةٌ ثقافيّـةٌ» تَعِي «الخَصَائِص العلْميّة» لعَصْرِهَا، وتَصْنَعُ «ثقافــة المُسْتَقْبَلِ» المُتَنَاغِمَةَ مع مُتَطَلَّبَــاتِ «التّنْمية»، والقَادِرَةَ علــى إحْدَاثِ «التَّحَوُّلاتِ الكَيْفيّة» اللّازِمَةِ في أنْمَاطِ التَّفْكير، وتَأْسيسِ «التَّغَيُّرات السُّلُوكيّة» المَطْلُوبةِ في تفاعُلاتِ الحياة، وإنْشَــاءِ «القِيَم العمليّــة» المُنْسَجِمَةِ مع «المُسْتَجِــدَّاتِ الاجْتماعيّة» و«التَّحَدِّياتِ المُعَاصِرَةِ» وما يَرْتَبِطُ بها من تطلّعاتٍ فَرْديّةٍ وجَمَاعيّةٍ في رِحَابِ المُجْتمع.

هنالك عِـدَّةُ أهْدافٍ يَنْبَغِـي أنْ تكون على رَأْسِ أولويّاتِ «الإسْتراتيجيّـة الثَّقافيّة» المَنْشُودَة، وأوّلُ هذه الأهْداف - في رأْيي - هو «عَقْلَنَةُ الثَّقافة»؛ فيَنْبَغِي أنْ تَنْتَقِلَ «الثَّقافةُ العربيّـةُ» من مَرْحَلَـةِ الاهْتمـام بـ«خِطَـابِ الإنْشائيّات» إلـى مَرْحَلَةِ الاهْتمـام بـ«طبيعة المُحْتَـوَى»؛ فلقـد غَرِقَـتْ «الثَّقافـةُ العربيّةُ» في لُجَّـةِ «مُفْـرَدَاتِ الخِطَـابِ»، واسْتَنْفَدَتْ حماسيّاتُـه وانْفعالاتُه طاقاتِهـا وعطاءاتِها، وتَضَاءَلَ - أو انْعَـدمَ - الاهْتمامُ بـ«المُحْتَوَى العِلْميّ»، والمَضْمُـونِ الفِكْريّ، والآليّاتِ الفَاعِلَة، والجَوانِـبِ المَعْرفيّة، والنَّقْدِ المَنْهَجِيّ. بطبيعة الحال، لا يُمْكِنُ أنْ تَتَحَقّقَ تلك «النَّقْلَةُ النَّوْعيّةُ» المَنْشُودَةُ، إلاّ عبْر رَبْطِهَا بعَصْرِهَا ومُتَطلَّبَاتِـه، وتوثيـقِ أوَاصِرِهَـا بخَصَائِصِ المرْحلـة وتداعياتها، فلا تَلْتَـفُّ «المسيرة الثَّقافيّـة» حـول دَوائِرَ لا تَتَغَيَّرُ ولا تَتَبَدَّلُ، ولا تُحَاصِرُ نفْسها فـي إطَارِ جَدَلٍ يُجَدِّدُ - دَوماً - احْتِفَـاءَهُ بالقُشُـورِ وولاءَهُ للتّعَصُّـبِ، ولا تَجْتَرّ ذاتها في رِحْلَةٍ دَاخِليّـةٍ مَعْزُولَةٍ، تَتَضَخَّمُ فيهـا رُؤىً ذاتيّةٌ عبْر الانْعكاسـاتِ المُتَكَرِّرَةِ على مرايا الأوْهَـام النّرْجسيّة، والإنْشائيّاتِ البلاغيّـةِ، والمُحَسِّنَاتِ اللّفْظيّةِ، والحماسيّـاتِ العَنْتَريّةِ؛ ليُفْلِحَ كُلُّ ذلك في إنْتَاجِ شُرُوطِ الانْحِطَاطِ والإخْفاقِ والتَّخَلُّف.

قـد تكون «نُقْطَـةُ البداية» - على طريق «عَقْلَنَةِ الثَّقافة» - هـي الاعْتِرَافُ بمَسْؤوليّة «الثَّقافـة» في الخَلَلِ البَارِزِ فـي «البِنْيَةِ التّنْمَويّةِ» بشَكْلٍ عامٍّ، وفـي التّشَوُّهَاتِ الكَامِنَةِ في البِيئَـةِ التّعْليميّةِ والحَرَاكِ الاقْتصاديّ والمُمَارَسَاتِ الحياتيّة، وحَرِيٌّ بمِثْلِ هذا الاعْتِرَافِ أنْ يقـود إلـى نتيجتـه الحَتْميّةِ فـي أهميّةِ تَرْسِيخِ القَنَاعَة بـأنّ هناك شُرُوطـاً أخْلاقيّةً ومَعْرفيّـةً وسُلُوكيّـةً وقيميّةً لازمَـةً للإنْسان؛ لكي يَدْلِـفَ - باقْتِدَارٍ - إلى عَالَـم «صِنَاعَةِ الحضـارة والتّقَـدُّم». إنّ المَخْرَجَ مـن مَـأْزِقِ الحَيْرَةِ والتِّيـهِ والإحْبَاطِ، في عَالَـم يَمُوجُ بالتَّحدّيـاتِ والمُفَارَقَـات، يَتَطَلَّبُ «التَّكْوين الثَّقافيّ» القَادِرَ على فَهْـمِ المُتَغَيِّراتِ بنُضْجٍ، واسْتِيعَـابِ المُسْتَجِـدَّاتِ بفَاعِليّـةٍ، واحْتِواءِ حماسِ الشّبَاب وتطلُّعاتِهـم، ورَبْطِ النّتائِجِ بالأَسْبـاب، وتَمْحيصِ العَنَاصِرِ وتَفْكيـكِ مُكَوِّنَاتِهَا، وإيقـاظِ رُوحِ المُبَـادَرَةِ والمُشَارَكَة، وتَأْسيسِ «التَّفْكِيـر العِلْمـيّ»، وتَسْريعِ «عمليّةِ التَّحَـوُّل» نحو «مُجْتمع المَعْرِفَـة» بكُلِّ قِيَمِهِ وأدواتِهِ ومُقْتَضياته.

تلـك «المُقدِّمَاتُ العَقْلانيّةُ» في مَعْرِفَةِ «مُواصَفَاتِ العَصْرِ»، وطبيعة تحدّياته، تُعَزِّزُ أهميّـة فَحْصِ الأُمُورِ وتَقْييمِهَا باسْتِخْدَام «مِجْهَرٍ تَنْمَوِيٍّ» يَحْرِصُ على التّلاقُحِ والتّرَاكُمِ، ويُقَلِّصُ مساحـات التّوَتُّر، ويَهْتَـمُّ بتَقْييـم «المَكَاسِبِ والخَسَائِـرِ»، ومُوَازَنَـةِ «المَصَالِحِ والمَفَاسِـدِ» في «حَرَاكٍ تَنْمَوِيٍّ» شَامِـلٍ يَتْرُكُ بَصْمَاتِهِ على الأَرْضِ، ويُشَكِّلُ - بتفاعُلاته وتراكُماته - وَاقِعَ المُجْتمع عبْر غَرْسِ «ثقافةٍ» تَضْبِطُ صِرَاعَاتِهَا الكلاميّةِ واسْتِعْرَاضَاتِهَا اللّفْظيّةِ وسِجَالاتِهَا الإنْشائيّةِ وحَمَاقَاتِهَا الانْفعاليّة، وتُنَمِّي عَلاقَاتِهَا التّنْمَويّة ومَشْرُوعَاتِهَا الحياتيّـة ومَصَالِحَهَـا المُسْتَقْبَليّة، وتَنْخَرِطُ في برامِج عمليّـةٍ تُعِيدُ - بطبيعتِها وتَطَوُّرِهَا وتراكُماتِها - صِياغَةَ الأَسْئلة، ونَوْعيّةَ الطَّرْح، وطُرُقَ المُعَالَجَة.

لقـد حَرَصْـتُ - بين طَيّاتِ هـذا الكِتَابِ - على إجْـلاءِ ما أَسْمَيْتُهُ «نَمُـوذَجُ التَّوَافُقِ التّنْمَوِيّ» (انْظر: الفَصْل الرّابع)، ونجدُ أنّ «عَقْلَنَةَ الثّقافة» - بمضامينها وأدواتها - تُعَزِّزُ هـذا النَّمُوذَجَ بين أَطْيَافِ المُجْتمع وشَرَائِحِهِ المُخْتلفة، حيث تكون «المعاييرُ التّنْمَويّةُ» - بأُسُسِهَا العِلْميّـةِ المُنْضَبِطَةِ - هي الحَكَمُ في الصِّرَاعَاتِ والخِلافَاتِ والقرارات، وتَتَوَلّى «مَوازيـنُ التّنْمية» مُهِمّـةَ تَقْليصِ مِساحات «الفَـرَاغ التّنْمَوِيّ»، وما يَنْجُـمُ عنه من تَشَنُّجٍ وتَطَـرُّفٍ وانْكِفَاءٍ وتَغْريبٍ وانْبِهَارٍ واجْتِرَارٍ وحَـرَكَاتٍ بَهْلوانيّةٍ تُريدُ أنْ تعيش دَاخِلَ الزّمنِ وخَارِجَـهُ فـي آنٍ وَاحِدٍ. إنّ الحقيقةَ الثّابِتَةَ في حياةِ المُجْتمعات هي أنّها كُلّما ابْتَعَدَتْ عن «المَنْظُـورِ التَّنْمَوِيّ»، أَوْغَلَتْ في إشْكَالاتٍ تَنْظيريّةٍ وجَدَلٍ عقيمٍ وصِرَاعَاتٍ سقيمةٍ وأوهامٍ بَالِيَةٍ، وسَقَطَتْ في فَخِّ «الفَرَاغِ الحياتيّ» فِكْريّاً ومَعْرفيّاً وإنْتاجيّاً واجْتماعيّاً.

بإيجـازٍ نقـولُ: إنّ «عَقْلَنَةَ الثّقافـة» مُقَوِّمٌ إسْتراتيجـيٌّ يُدْرِكُ أنّ علـى «الثّقافة» أنْ تَلْتَصِـقَ باحْتياجاتِ مُجْتمعهـا، وتَتَغَلْغَلَ في هُمُوم وطنِها، وتَتَعَـرَّفَ على تحدِّياتِ زمنِها؛ فتتولّـى توليدَ قِيَمٍ ومُمَارَسَاتٍ ومعـارِفَ قَادِرَةٍ على أنْ تكون «القَاطِرَةَ» التي تَجُرُّ المُجْتمع فـي اتّجَـاهِ «سَهْمِ الزَّمَـنِ»، وتُعَمِّـقُ اسْتِقْـرَارَهُ وانْتِمَـاءَهُ وتَنْميته، وذلـك عبْـر «الانْدِمَاجِ الحيويّ» في «بَوْتَقَةِ التّنْميـة» بتفاعُلاتِها المُجْتمعيّةِ المُتَوَافِقَةِ مع عَصْرِهَا، والمُتّسِقَةِ مع طبيعـةِ مُشْكلاتِها، والمُتَنَاغِمَةِ مـع تطلّعاتِ أجْيالِها، فلا تكونُ الأُمّـةُ مُتَطَفِّلاً ثقيلاً على مَوائِدِ الآخرين تُعَانِي من حالةِ الذُّهُولِ والرَّهْبَة، ولا يَدْفَعُ الإحْبَاطُ وسُوءُ التَّأْويلِ واحْتِكَارُ

الحقيقــة بعضــ جماعاتِها إلــى حَمَاقَــاتٍ لا يُحْمَدُ عُقْبَاهَــا، ولكنّها تتعاملُ مــع مُعْطياتِ عَصْرِهَا بِلُغَــةِ زمانِها، وتَسْتَنْفِرُ قُدْراتِها بثِقَةٍ وعَقْلانيّةٍ وتفــاؤلٍ، وتَهْتَمُّ بما يَنْفَعُ الإنْسان ويُعَمِّرُ الأوطان.

إنّ أحــد الأسْئلة الكُبْرى التي تَطْرَحُهَا قضيّةُ «عَقْلَنَةِ الثَّقافة»، هو سُؤالٌ تَكَرَّرَ ورودُه في صَفْحَاتِ هذا الكِتَاب، ونَطْرَحُهُ هنا للمَرَّةِ الألْف: (هل يُمْكِنُ أنْ نَتَحدَّثَ عن «الثَّقافة» بمَعْــزِلٍ عن عَصْرِهَــا وطبيعةِ القُــوى المُهَيْمِنَةِ عليــه والمُحَرِّكَةِ لمَسَارَاتِــه بينما تَنْصَبُّ حِوارَاتُنَــا وسِجَالاتُنَا على ما أَلِفْنَاهُ مــن كَلَامٍ وجِدَالٍ وخِصَامٍ؟). إنّ الإجابة الموضوعيّة عــن هذا السُّؤالِ تُحَــدِّدُ اتِّجَاهَ «بَوْصَلَــةِ الإسْتراتيجيّة الثَّقافيّة»، وهنا تَبْــرُزُ أهميّة تَوَافُرِ «إرادةٍ سِياسِيّــةٍ» جَــادَّةٍ تَدْفَعُ في الاتِّجَاهِ الصَّحيح الذي يُحَقِّقُ مــا تَتَوَخّاهُ «الإسْتراتيجيّة التَّنْمَوِيّــة» من اسْتِقْرَارٍ للمُجْتمــع، وتَأَلُّقٍ لإبْداعاته، وتَطْويــرٍ لفعّاليّاته؛ وذلك عبْر تَنْفيذ «إسْتراتيجيّــةٍ ثقافيّةٍ - تَنْمَويّةٍ» تَسْتَوْعِبُ مُعْطيــاتِ «الزَّمَانِ» و«المكان»، وتَدْفَعُ بالطّاقاتِ على طريقِ الإنْتاج والإبْــداعِ والابْتكار، وتَنْتَشِلُهَا من دَوَّامَاتِ العَجْزِ والإحْبَاطِ والغُرْبَةِ في عَصْــرِ التَّفوُّقِ العِلْميّ، والهَيْمَنَةِ التّقنيّة، و«العَوْلَمَــةِ» الجَارِفَة؛ وتَتَجَلّى هنا بوضوحٍ أهميّةُ «الثَّقافة العِلْميّة» ونَشْرِهَا وتَكْريسِهَا بصفتها أداةً فَاعِلَةً لتوليد تلك العَقْلَنَة»، ودَمْجِ الفَرْدِ مــع عَصْرِه، وتوثيقِ صِلاتِه بطبيعة «تحدّيات الألْفيّة الثّالثــة»، وتَرْسيخِ أواصِرِه مع رَكَائِزِ «مُجْتمع المَعْرِفَة».

٩-٧-١) «مِسْطَرَةُ العَوْلَمَة» و«الإصْلاح»:

وَقَفْنَا - في الفَصْلِ الثّاني - أمام مُصْطلح «العَوْلَمَة» وتداعياته ومُقَوِّمَاته، ومن المُهِمّ أنْ نَقِــفَ فــي خَاتِمَةِ هذا الكِتَاب أمام هذا المُصْطلح مــن جديدٍ؛ وذلك لأهميّته وعَلاقَتِه العُضْويّــة بقضيّة «الإصْلاح» التي يُرَوَّجُ لها في جَنَبَــاتِ «المُجْتمعات العربيّة»، ولارْتباطه الجِذْرِيّ بأحْوالِ ما سُمِّيَ «الرّبيع العربيّ»، وما تَمَخَّضَ عنه من هَزّاتٍ وارْتِدادات. إنّنا إذا مَحَّصْنَــا طبيعة «المِسْطَرَةِ العَوْلَميّةِ» التي تُقَاسُ بها المَكَاسِبُ والخَسَائِر، وتأمَّلْنَا حقيقة أبْعَادِهَــا التي تُحَدِّدُ درجة النَّجــاحِ أو الإخْفاق؛ فإنّنا نجدُ أنّه في زمنِ الشَّركاتِ الضَّخْمَةِ

العَابِـرَةِ للقارّاتِ، والمُرَوِّجَةِ - عَالَمياً - لِخِدْماتِهَــا ومُنْتَجاتِها، وفي ظِلِّ الضَّخِّ الإعْلامي الهَائِـلِ بعد تهاوي الحُدُودِ والقُيُودِ عبْر «تَقْنيات الإعْلام» ووسائله المُتَطَوِّرَة، وتحت وَطْأةِ «ثَوْرَةِ المَعْلُومات» وهي تَتَمَدَّدُ في كُلِّ اتِّجَاهٍ في مُتَوَالِيَةٍ هَنْدَسِيّةٍ مُطَّرِدَةٍ؛ أقولُ: نجدُ - في ظِـلِّ كُلِّ ذلك اللّهاث والتّغيُّـرات - أنّ «مسْطَرَةَ العَوْلَمَةِ» لا تَمْلِـكُ إلاّ أنْ تَنْحَازَ إلى الأَكْثَر تنافُسِيّةً، والأطْول بَاعاً، والأَعْمق تَأْثيراً على حيواتِ البشر ومعاشِهم وحاجاتِهم.

إنّ «ظَاهِـرَةَ العَوْلَمَةِ» في شُمُوليّتِهَا لكُلِّ مضامين الحياة المعَاصِرَة، وانْتِشَارِهَا عبْر كُلِّ مَرَافِق «المُجْتمع الحديث»، تَنْطَلِقُ - بحيويّةٍ - تحت تَأْثِيرِ «القُوّةِ الدَّافِعَةِ» المُتَمَثِّلَةِ في «حَرَكَـةٍ عِلْميّـةٍ» دَؤوبةٍ، وقَفْزَاتٍ تقنيّةٍ مُتَلاحِقَةٍ؛ لنجـد أنّ «العَوْلَمَةَ» - في نهاية المطاف - ليسـتْ إلاّ الابن الشَّرْعِيّ للعلوم والتّقْنية؛ فهي التَّرْجَمَةُ الفِكْريّة والثقافيّة والاقْتصاديّة والعسْكريّـة والإعْلاميّـة للسَّطْوَةِ التّقنيّـة، وهي الفِعْـلُ المُتَحَرِّكُ على الأرْضِ بقُوَّةِ دَفْعِ «الهَيْمَنَـةِ العِلْميّة»، ولذا لم يكـنْ غريباً أنْ تُتَّهَمَ «العَوْلَمَةُ» بأنّها «أَمْرَكَةٌ»؛ لأنّه من البدهيّ أن يُمْسِـكَ بتلابيبِ «العَوْلَمَةِ» ويقود مسيرتَها ذلك الطَّرَفُ الذي قَبَضَ على زِمَامِ «العلوم والتّقْنية»، وتَمَكَّنَ من تَطْويعِهَا لأغْرَاضِهِ وفِكْرِهِ ومَصَالِحِه.

وبوَقْفَـةٍ مُتَأنِّيَـةٍ، أمام طبيعـة «المِسْطَـرَةِ العَوْلَميّة»، نُـدْرِكُ أنّ تَحَيُّزَهَـا هو تَحَيُّزٌ مَنْطقـيٌّ لصَالِـحِ «الفِكْـرِ العِلْمـيّ» و«الطَّفْـرَةِ التّقْنيّة»؛ ولـذا فإنّها، وهي تَقِيسُ جَدْوَى الأُطُـرِ المُخْتلفةِ للتّفاعُلِ العَالَميّ، تتجاوزُ الشَّـكْلَ والمَظْهَرَ لتَسْبُرَ أَغْوَارَ الأدَاءِ والجَوْهَرِ، ولتَفْرِضَ شُرُوطاً على كُلِّ الدُّول بقِطَاعَيْهَا العامّ والخاصّ ومُكَوِّنَاتِهَا التّعْليميّة والبَحْثيّة والتّدْريبيّـة والثّقافيّـة والإعْلاميّـة، ومُطَالِبَـةً بتجاوز مَرْحَلَـةِ «رُدُودِ الفِعْـل» الخَالِيَةِ من «الرُّؤيـة الإسْتراتيجيّة» والعمل المَدْرُوس، ومُلْزِمَةً بالانْتِظَام في قَوَالِب مُنْسَجِمَةٍ مع «رُوح العِلْم»، ومُعَمِّقَةٍ لـ«أَخْلاقيّات العمل»، ومُتَوَافِقَةٍ مع «ثقافة الإنْتاج». وأمّا «مَنْطِقُ الإصْلاح» - بأشْكَالِـهِ التّنْمَويّـة - فإنّه يَطْمَحُ إلــى أنْ تَنْحَازَ «المِسْطَرَةُ العَوْلَميّـةُ» إلى صَالِحِهِ عبْر «إرادةٍ» جَازِمَةٍ فــي مُعَالَجَةِ أَوْجُهِ القُصُور، و«إدارةٍ» حَازِمَةٍ في التّوفيقِ بين اتِّخَاذِ القرار وبيـن تَرْجَمَتِهِ على الأرْضِ لإحْدَاثِ «النَّقْلَةِ النّوْعيّة» في دُنْيَا المُنَافَسَةِ التي تَزْدَادُ وَطْأتُهَا كُلَّ ساعـةٍ. لـن يَتَحَقَّقَ الوُلُوجُ - باقْتِـدَارٍ - إلى عَالَمٍ يَضِجُّ بمُعْطياتِ «الفِكْرِ العِلْميّ»، إلاّ

بتَعْميقِ عمليّة «الإصْلاح الثَّقافيّ» في المَنَاهِلِ التّعْليميّة والبَحْثيّة والتّدْريبيّة، والتّفاعُلاتِ الثّقافيّـة والمُجْتمعيّـة والاقْتصاديّة؛ وفي ثنايا هذا الكِتَابِ يَتَجَلَّى الهَـمُّ الرّئيسُ المُتَمَثِّلُ فـي ضَرورة «الإصْلاح الثَّقافيّ» الذي يَسْتَوْعِـبُ «رُوحَ العَصْرِ» وتحدّياتِه، ويَضْبِطُ إيقَاعَهُ مـع «إكْسِيـر التَّنْمية» القَابِضِ على زِمَـامِ «الحَرَكَة العِلميّة» وامْتِداداتِهَـا التّقنيّة؛ ألا وهو «الثّقافةُ العِلْمِيّةُ» وجذورُها المُجْتمعيّة.

٩-٧-٢) ما بَعْدَ «الرَّبيع العربيّ»:

لا يُمْكِـنُ الحديثُ عن مـا عُرِفَ باسْم «الرَّبيع العربيّ» الذي اجْتَاحَ المَنْطقة العربيّة فـي مَطْلَـعِ العَقْدِ الثّاني مـن «الألْفيّة الثّالثـة»، وتَجلّى في شَـكْلِ ثَـوْراتٍ شَعْبيّةٍ وحركات احْتِجَاجٍ في تونس ومصر وليبيا وسوريا واليمن وغيرهم، دون الإشارة إلى الدَّوْرِ الرِّياديّ الـذي قَامَتْ به «التّقْنيـةُ الحديثةُ» - من هَواتِف خلويّةٍ وقَنَوَاتٍ فضائيـةٍ وشَبَكَاتِ تواصُلٍ اجْتماعـيٍّ واسْتيعابٍ عـامٍّ لـ«شُرُوط العَصْرِ» ومُتَطَلَّبَاتِه - فـي إضْرَامِ نار ذلك «الرَّبيع»، وإنْجَـاحِ أهْدافه الأُولى من تَغْييرِ أنْظِمَةٍ وإسْقَاطِ قيادات. وهذه الحقيقة تَصُبُّ في تَأْكيدِ مـا حَرَصْنَا - في هذا الكِتَاب - على إجْلائِهِ من التَّأْثيراتِ العميقةِ لـ«العلوم والتّقْنية» في حيـاة المُجْتمعـات عامّةً، وما تُحْدِثُهُ من تَغَيُّراتٍ على مُخْتلـف الأصْعِدَةِ الحياتية خاصّةً؛ ممّا يُعَزِّزُ من مكانة «الثقافة العِلْميّة»، وأهميّة تَرْسيخِهَا في المُجْتمعات المُعَاصِرَة.

وأمّـا الجَانِبُ الآخَرُ المُهِمُّ في تَجلّيَاتِ ما سُمِّيَ «الرَّبيع العربيّ»، هو أنّ تلك الثّوْرات قد تَخَلّتْ عن الشِّعاراتِ الأيديولوجيّة، والتَّنْديدِ بأَعْداءٍ في الخَارِج، وادّعاءاتِ المُؤامرات الدوليّـة؛ لتَهْتَـمَّ بوَاقِـعِ الإنْسـان في بلـدِه، وتَحْقيـقِ كرامته في وطنـه، وحِمَايَـةِ حُقُوقِهِ وتطلُّعاتِـه. كُلُّ ذلك يَشِي بـأنّ «الإنْسان العربيّ» قد اسْتيقظ من تلـك «الغَفْلَةِ التّاريخيّة» التـي أَهْمَلَتْ قضايا «التّنْمية»، وهُمُومَ حياته المُبَاشِـرَة، وأَصْبَحَ «الإنْسانُ العربيُّ» يَطْمَحُ إلـى تَعْزيـزِ مكانته في وطنـه، والمُشَارَكَةِ الفَاعِلَةِ فـي قضايا الحياة وأَحْـوال المُجْتمع. وبِغَضِّ النَّظَرِ عـن النّتائِجِ المُحْتَمَلَةِ في المَنْظُور القريب، والارْتِدَاداتِ السَّلْبيَةِ، والهَزّاتِ العنيفـةِ لحَرَاكِ «الرَّبيع العربيّ»؛ إلاّ أنّ المُحَصِّلَـةَ النّهائيّة تُبَشِّرُ بـ«ثقافةٍ جديدةٍ» تَحْمِلُ

بُـذُورَ تَغيُّـراتٍ أساسٍ في الـرُّؤى والمسارات، وتَخْلُـقُ وَضْعاً جديداً علـى كُلِّ المُسْتويات السّياسيّة والتّعْليميّة والاجْتماعيّة والاقْتصاديّة وغيرها. ومن المُؤمَّلِ أنْ تَتَّضِحَ الأولويّات بشَكْلٍ لا يَقْبَلُ التّرَاجُعَ أو التّنَازُلَ؛ ليَحْتَلَّ «المَنْظُورُ التّنْمَويُّ»، وبرامِج «التَّوَافُق التّنْمَويّ» - بمُعْطَيَاتِهَـا وضَوابِطِهَا وثقافتِها - مَوْقِعَ الصَّدارَةِ بمَنْأىً عن «ثقافةٍ» هَيْمَنَتْ رَدْحاً طويلاً مـن الزّمـن غَابَتْ فيه الأولويّات، واخْتَلَطَتْ الأوراق، وتَداخَلَـتْ - وما زالت - أطْيَافٌ من الدِّينيّ والقوميّ والحَداثيّ والطّائفيّ والانْتهازيّ في عُقُولٍ مُضْطَرِبَةٍ؛ لتُصْبِحَ الاسْتِدْلالاتُ في غير مَحَلِّهَا، والمُقَارَنَاتُ خَارِجَ سِيَاقَاتِهَا.

ونَسْتطيعُ القول إنّ الدَّافِعَ الحقيقيّ وراء انْفجار أحْداث «الرَّبيع العربيّ» هو «الفَشَلُ التّنْمَـويّ» الـذي عَاشَتْهُ تلك المُجْتمعات، وما عَانَتْهُ من تنامِي مُعَـدَّلاتِ البَطَالَةِ، وانْتِشَارِ مَظَاهِـرِ الفَقْـرِ والفَسَـادِ المالـيّ والإداريّ، وتَردِّي الإنْتاجيّـة، وتَعْطيلِ المَـوَارِد المادّيّة والبشريّـة؛ ممّـا يُعِيدُنَا إلى «مَرْبَـطِ الفَرَسِ»، وهو مـا أَسْمَيْنَاهُ «إشْكَاليّـةُ التّنْمية»، ولقد حَرَصْـتُ - في هذا الكِتَابِ - على تَحْليل أبْعَادِ هذه «الإشْكَاليّة» التي هَيْمَنَتْ على «حَرَاكِ المُجْتمعات العربيّة» طَوَالَ ما يَرْبُو على قَرْنَيْنِ، ممّا أَسْموه «عَصْرُ النّهْضَة».

ومن بدهيّاتِ الأُمُورِ، أنّه إذا لم يَسْتَفِدْ «الرَّبيعُ العربيُّ» من أَخْطَاءِ مُحاولات الماضي ومُبَادَرَاتِهـا بمُخْتلف أشْكَالِهَا ومَدارِسِهَا، واسْتَمَرَّ في تَجَاهُـلِ مُقَوِّمَاتِ «إكْسِير التّنْمية»، وتَكْريسِ ما عَهِدَتْهُ «المُجْتمعاتُ العربيّةُ» من إهْمالٍ للتّلاقُحِ المَطْلُوبِ بين عناصِر «الثَّالُوث النَّاجِع»: (التّنْمية - الثَّقافة - العِلْم)، فإنّ شيئاً ما لنْ يَتَغَيَّرَ جِذْرِيّاً، وسيَسْتَمِرُّ المَخَاضُ الصَّعْـبُ الذي تَمُـرُّ به المَنْطقة العربيّة؛ بَـلْ وسيَتَفَاقَمُ، وستَنْخَـرِطُ «الثّقافةُ العربيّةُ» - كمـا فعلتْ طَوَالَ مُحاولاتِهـا النَّهْضَويّة - في متاهاتِ التّعْميـم والحماسيّات، والاتّهاماتِ المُتَبَادَلَةِ، وجَـدَلِ «التُّرَاثِ والحَدَاثَةِ»، وخِلافَاتِ «العَوْلَمَـةِ والخُصُوصِيّةِ»؛ لتكون النّتائِجُ أَسْـوأَ مِـن ذي قَبْلُ؛ فالتّاريخُ لا يَرْحَم. وأمّا ما ستؤولُ إليـه الأُمُورُ فسَيكونُ مَرْهوناً بمدى الفَهْـمِ لخَصَائِصِ «إشْكَاليّة التّنْمية»، وكمـا يُعَلِّمُنَا «عِلْمُ المَنْطِقِ»، فـإنّ: («المُقَدِّمَاتُ» نَفْسُهَا لن تقودَ إلى «نَتَائِج» مُخْتلفة).

لا شــكَّ في أنّ تلك التّغيُّراتِ الوَاعِدَةِ التي كَرَّسَتْهَــا أَحْلامُ «الرَّبيع العربيّ»، وحَمَلَ جَذْوتَهَــا شبــابٌ يَتَطَلَّعُ إلى فُرَصٍ تَنْمَويّــةٍ، وإسْهاماتٍ عَصْريةٍ، وحُقُــوقٍ أصيلةٍ، وعَدَالَةٍ اجْتماعيّــةٍ، وأدْوارٍ فَاعِلَــةٍ؛ تَبْــرزُ - في ثنَاياها - إطْــلالاتٍ تَنْمويّةً تَنْشُــدُ غَرْسَ «الرَّبيع التَّنْمَــويّ»، ومُحَبِّذَةً لـ«نَمُــوذَجِ التَّوَافُقِ التَّنْمويّ»، ومُؤَكِّدَةً علــى ضَرورته (انْظر: الفَصْل الرَّابع)؛ وأمّا المَسْأَلَةُ الأساسُ فتَبْقَى مَرْهُونةً لطُرُقِ تَعْزيزِ هذا «الرَّبيع التَّنْمويّ» وتَمَثُّلِهِ وتَرْجَمَتِــهِ إلــى وَاقِعٍ مُتَحَرِّكٍ علــى الأرْض. إنّ هــذه «الرُّؤية» هي الهَمُّ الــذي حَمَلَهُ هذا الكِتــابُ، مُحاوِلاً تَقَصِّي أسْباب إخْفَاقِ «البرامِج التّنْمَويّة» و«المَشْرُوعَاتِ النَّهْضَويّة» في الماضــي، ومُتَوَخِّياً الاسْتِدْلال بإرْهَاصَاتِ المُثقَّفيــن والمُفكّرين، وهي تَبْحَثُ عن مَخْرَجٍ مــن «إشْكَاليّــة التّنْمية». وهذا يعودُ بنا - من جديدٍ - إلى فُصُــولِ هذا الكِتَاب ومَبَاحِثِهِ؛ لنَخْلُصَ إلى إيجــازٍ نقولُ فيه: (دون «ثقافةٍ عِلْميّةٍ» مُتَفَاعِلَةٍ مــع «القَاعِدَةِ الجماهيريّة» الوَاسِعَــة، ودون «تَأْسيسٍ ثقافيٍّ» يَحْتَضِنُ «تفاعُلاتِ العَصْر»، ودون «رُؤيةٍ تَنْمَويّةٍ» تَصْنَعُ «الاسْتِجَابَــةَ» الفَاعِلَــةَ لـ«التَّحَــدّي» القَائم؛ أقولُ: دون كُلِّ ذلــك - مُجْتَمِعاً - لن تَسْتَطيعَ «المُجْتمعــاتُ العربيّــةُ» أنْ تَزْعُــمَ أنّهــا اسْتَفَــادَتْ من أَخْطَــاءِ الماضي، ووَظَّفَــتْ كَامِلَ مَوارِدِهَا، وحَفَّزَتْ كُلَّ طَاقَاتِهَا، واسْتَنْفَرَتْ جميع قُدْرَاتِهَا، واسْتَخْلَصَتْ لمَشْرُوعِ «التَّنْمية والرُّقيّ» أَفْضَلَ عُقُولِهَا).

٩- ٨) الخَاتِمة:

لن يُنْكِرَ علينا أحدٌ إذا قُلْنَا إنّ أَقْصَى الشَّرائِحِ القَابِعَةِ على سُفُوحِ «الفِكْرِ اليَسَاريّ» المُتَمَــرِّدِ بطبيعتِه وخَصَائِصِه، وإنّ أَقْصَى الشَّرائِحِ الجَاثِمَــةِ على تِلالِ «الفِكْرِ اليَمينيّ» المُتَشَــدِّدِ بمُنْطَلَقَاته وغاياته؛ كُلُّها - دون اسْتِثْنَاءٍ - تَلْتَقِي حول رُؤيةٍ جَامِعَةٍ لكُلِّ أَطْيَافِهَا وأَلْوَانِهَــا، وهــي أنّ «الفِكْرَ العِلْميّ» هو عِمَادُ «الحياة المُعَاصِــرَة»، وأنّ «الحركة العِلْميّة - التّقنيّــة» هي الصَّانِعَةُ لعَنَاصِرِ القُوّةِ والهَيْمَنَــةِ والنُّفُوذِ التي هي - بالضّرورة - المَطَالِبُ المِحْوَرِيّة التي تَتَصَارَعُ لتَحْقيقِهَا تلك الشَّرائِحُ المُتَضَادَّة، وهي الغاياتُ التي تَتَنَافَسُ على إنْجازِهَا تلك التَّوَجُّهَاتُ المُتَبَاينَة.

تلك حقيقةٌ بدهيّةٌ على المُستوى العَالَميّ، فنجدُ في «المُجْتمعات الغَرْبيّة» -بتاريخِها وتفاعُلاتِها وتجاربِها - أنّ «العِلْمَ الطَّبيعيّ» لم يكنْ فقط قَادِراً على إطْلاقِ ثَوْرَةٍ صِناعيّةٍ وإنْتاجيّــةٍ ومَعْرفيّةٍ كَاسِحَةٍ، ولكنّــه أيضاً غَيَّرَ من طبيعةِ عُلومِهــم الإنْسانيّة، وفَلْسفاتِهم الوَضْعيّة، ومفاهيمِهم الحَرَكيّة. إنّ الصِّرَاعَ التّاريخيّ - في «ثقافة الغَرْب» - بين «الدِّين والعِلْــم»، دَفَعَ بفلاسفتِهــا ومُنَظِّريها إلــى الاسْتِنْجَادِ بـ«الفِكْــرِ العِلْميّ» لحَــلِّ إشْكَالاتِهِمْ وصِرَاعَاتِهِمْ، وراحوا يَسْتَعِيرُونَ مُصْطلحاتٍ ومفاهيمَ من رِحَابِ «الفِكْرِ العِلْميّ» ليُؤَصِّلُوا اجْتِهَادَاتِهِـمْ الوَضْعيّة، وأحياناً يُلْوُونَ أَعْنَاقَ «النُّصُوصِ العِلْميّة» بشَكْلٍ قَسْريٍّ فَجٍّ كما هو الحال مع «الفَلْسَفَةِ الماركسيّة» و«الفِكْرِ اللّيبراليّ» و«التَّوَجُّهَاتِ الإلْحَاديّة».

ذلــك على صعيدِ «المُجْتمعــات الغَرْبيّة» وثقافتِها الغَازِيَةِ الغَالِبَــة، وأمّا على صعيدِ «المُجْتمعــات العربيّة»، فالقضيّةُ أكْثر إلْحاحاً وأشدّ وضوحاً؛ فأَكْثَرُ الليبراليّين ليبراليّةً، وأَشْرَسُ الحَداثيّين حَدَاثَةً، يَلْتَقُونَ - بالضّرورة - مع أَعْتَى المُتَشَدِّدين وأَعْنَتِ المُتَزَمِّتين فــي أنّ مَصَالِــحَ الأوطان تَرْتَبِــطُ مُبَاشَرةً بمدى قُــدْرَةِ مُجْتمعاتِهم علــى «تَطْويعِ العلوم» و«توطينِ التّقْنية». كُلُّ الأطْياف - دون اسْتِثْنَاءٍ - تُؤكِّدُ أنّها تَنْشُدُ تَحْقيقَ «مُجْتمع المَعْرِفَة»؛ وهــو «حالةٌ مُجْتمعيّةٌ» لا تَتَحَقَّقُ إلاّ عندما يُصْبِحُ «المُجْتمع» قَادِراً على اكْتِسَابِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّــة» والتّقنياتِ الحديثة وإنْتاجِهــا، وتَنْمِيةِ الإمْكَانَاتِ والمَــوَارِدِ وتَطْويرِهَا، وتَأْسيسِ آليّــاتٍ قَــادِرَةٍ على توظيفِ المعارِف بحيويّــةٍ، والمُحَافَظَةِ علــى المُكْتَسَبَاتِ بكفاءَة. وفي هذا السِّيَاقِ يَصِفُ عبد العزيز التّويجري طُمُوحَ التّعاون بين الدُّول الأَعْضاء في «مُنَظَّمَة التَّعاون الإسْلاميّ» في ميادين «العلوم والتّقْنيّة» بأنّه: (ضَرورةٌ من ضَرورات الانْتقال من مَرْحَلَــةِ الضّعْف والقُصُورِ إلى مَرْحَلَــةٍ يَمْتَلِكُ فيها العَالَمُ الإسْلاميُّ شُرُوطَ القُوّة والتّفَوُّقِ والتّقدُّم، فالتّعــاونُ في هذا المجال الحيويّ على جميع المُسْتويات وعبْر مُخْتلف القَنَوَات هــو الأساسُ في إرْسَاءِ «القَاعِــدَةِ العِلْميّة» بما يُمَهِّدُ السَّبيل لإيجــاد «البِيئة العِلْميّة» التي تَتَبَلْوَرُ في مُحيطِهَا «الثّقافةُ العِلْميّةُ» التي هي النَّوَاةُ الأولى لـ«المُجْتمع العِلْميّ»)[١٠٢].

إذاً «مُجْتمعُ المَعْرِفَة» «حالةٌ مُجْتمعيّةٌ»، لا تَتَأَصَّلُ ولا تَسْتَقِرُّ إلاّ عندما تَتَوَافَرُ شُرُوطُ «مُنَــاخٍ عِلْميٍّ» عامٍّ، وأهمُّها - على الإطْلاق - ذلــك «الشَّرْطُ الثّقافيّ» المُتَمَثِّلُ في «ثقافةِ

عِلْميّـةٍ»، ووَعْـي مُعَاصِرٍ، يَدْفَعَانِ فـي حركةٍ دَؤوبةٍ نحـو تفاعُلاتٍ مُجْتمعيّـةٍ مُتوَافِقَةٍ مع زَمَنِهَـا، ومُتَّسِقَةٍ مع طبيعةِ مُشْكِلاتِهَا، ومُتَنَاغِمَةٍ مع تطلُّعاتِ أجْيالِهَا، ومُتَصَالِحَةٍ مع قِيَمِ مُجْتَمَعِهَـا، بصفتها مُتطلَّباً جَوْهَرِيّاً لـ«التَّوَاؤم الاجْتماعيّ»؛ فلا تكونُ الأُمّةُ مُتَطَفِّلاً ثقيلاً على مَوَائِدِ الآخَرين تُعَانِي من حالاتِ الذُّهُولِ والانْكِفَاءِ والانْبِهَارِ والإحْبَاطِ والانْبِطَاح.

تلـك التَّطَلُّعَـاتُ المُجْتمعيّةُ نحو «التّنْمية»، والأَهْدَافُ الوطنيّـةُ نحو «النَّهْضَة»، التي تَجْمَعُ بين مُخْتلف الأطْيَافِ الفِكْريّة، تَسْتطيعُ أنْ تكون حَاضِنَةً وطنيّةً رَحْبَةً تَسْتَمِدُّ الدِّفْءَ والحيويّـة من حِـوَارٍ شَامِلٍ على «أرْضيّـةِ التّنْمية»، ومعاييرِها الموضوعيّـة، ومُقْتضياتِها العمليّـة، ولن يَتَحَقَّقَ ذلـك إلاّ إذا اسْتَنَدَ إلى قَاعِدَةٍ صُلْبَةٍ من «الثَّقافـة العِلْميّة» القَادِرَةِ علـى فَرْزِ الزَّائِفِ من الاعْتبارات، ونَبْذِ الغَثِّ من الطُّرُوحَـات، وتَعْميقِ «التَّوَافُق التّنْمَويّ» نحـو ما اتَّفَقَ عليه الجميـع من أهميّةٍ حَاسِمَـةٍ لقضايا «توطين التّقْنيـة»، ونَشْرِ «العِلْم»، وتَحْفيـزِ «الإنْتَـاج»، وتَفْجيرِ مَنَابـعِ القُوّة. وأمّا أولئـك الذين يُراهِنُونَ علـى بِنَاءِ كِياناتٍ عِلْميّـةٍ شَامِخَةٍ مُسْتَنِدَةٍ إلى «فَرَاغٍ ثقافـيٍّ»، فإنّهم يَلْهَثُونَ وراء سَرَابٍ في صَحَرَاء قَاحِلَةٍ؛ فالتّجْرِبـةُ الإنْسانيّـةُ، وطبيعةُ «العَقْلِ البشـريّ»، تُؤكِّدَانِ أهميّةَ وجـودِ «الوَسَطِ الثَّقافيِّ» المُلائِـم؛ لكي تَسْتَقِرَّ عمليّةُ «التَّخْصيب العِلْميّ» في التّفاعُلاتِ العامّة، وتَرْسَخَ «مُقَوِّمَاتُ العِلْم» في النَّسيجِ المُتَنَوِّعِ للمُجْتمع.

وأمّـا المُضْحِـكُ المُبْكِي في حَـال «المُجْتمعـات العربيّة»، فهو عودتُهـا المُتَكَرِّرَةُ – بعـد قَرْنَيْنِ من الشَّدِّ والجَذْبِ حول «مَشْـرُوعِ النَّهْضَة» و«قضيّة التّنْمية» – إلى صِرَاعَاتِهَا القديمـة، ودَوَائِرِهَا المُغْلَقَـة، وجَدَلِهَا العَبَثِـيّ، وأَسْئِلَةِ «الانْبِهَارِ والاجْتِـرَار»، بينما تَقْبَعُ «الثَّقافـةُ العِلْميّةُ»، بكُلِّ ما تَحْمِلُهُ من عَقْلَنَةٍ وآفـاقٍ وإمْكاناتٍ، في أسْفل قَائِمَةِ الأولويّات، وأدْنَـى اعْتباراتِ «التَّنْمية». لقد أَهْمَلَ «الخِطَابُ الثَّقافـيُّ العربيُّ» «المَنْظُورَ التَّنْمَويّ» في حيَـاةِ الإنْسان، وانْصَرَفَ إلى تَكْريسِ شِعَارَاتٍ فَضْفَاضَةٍ، وتَأْجيجِ انْفعالاتٍ مُنْفَلِتَةٍ، تُريدُ أنْ تُنْقِذَ العَالَمَ بأسْرِهِ، ولكنّها تَفْشَلُ – ابْتِدَاءً – في إنْقَاذِ نفْسِها وتَطْويرِ حياتِها وتَصْحيحِ مَسَارَاتِهَـا. وهكذا نجـدُ أنّ الغَائِبَ الوحيدَ عـن السّاحة هو ذلك «المَنْظُـورُ» القَادِرُ على امْتِـلاكِ رُؤْيةٍ فَاعِلَةٍ تَتَحَرَّكُ في اتِّجَـاهِ «المُسْتَقْبَل»، وتُوَازِنُ بيـن «المَصَالِحِ والمَفَاسِد»،

وتَأْخُذُ بالأسْبَابِ في تفاعُلاتٍ تَعْرِفُ طبيعة عَصْرِهَا؛ فتكـونُ «الـحَرَكَةُ التَّنْمَويّةُ» - بكُلِّ مُعْطياتِهـا وضَوابِطِهَـا - هَاجِسـاً مُقِيمـاً يَحْتَلُّ مِساحتـه وأولويّته في الجُهُـودِ الثّقافيّة، والاهْتِماماتِ الفِكْريّة، والإبْداعاتِ الإنْسانيّة، والتّفاعُلاتِ المُؤسَّسِيَّة.

ولإيماننـا بحَتْمِيّةِ السُّنَنِ الكوْنيّةِ؛ فإنّه لن يكون هنـاك مَخْرَجٌ من هذا «المَأْزِق» إلاّ عبْـر الاهْتِمَامِ بـ«قضايا الإنْسان» بَدَلاً مـن الانْشِغَالِ بـ«مهارات اللّسان»، ولن تَتَقَدَّمَ الأُمّةُ إلاّ بالانْصِرَافِ إلى البِنَاءِ والتَّعْميرِ عِوَضَاً عن الفِتْنَةِ والتّدْمير، ومن البدْهيّ أنّ مِثْلَ هذه «الرُّؤيـة» لا يُمْكِـنُ أنْ تَتَحَقَّقَ إلاّ في إطَارِ «ثقافةٍ تَنْمويّـةٍ» تَتَغَلْغَلُ في «النَّسيجِ الاجْتماعيّ» والحياةِ اليوميّة والفِكْرِ السَّائد.

وبإيجـازٍ أَخْتِمُ بما خَتَمَ به تشارلز سنو مُحاضرتـه الشَّهيرة في «جامعة كامبردج» ببريطانيـا - في عام ١٩٥٩م - وهو يَطْرَحُ رُؤيَتَهُ لـ«إشْكَالِيّةِ الثّقافتَيْن»: (أَلَمْ يَحِنِ الوَقْتُ للبَدْءِ في العمل؟ إنّ الأَمْرَ الخَطِيرَ أنّنا تَرَبَّيْنَا على الاعْتِقَادِ بأنّنا نَمْلِكُ كُلَّ الوَقْتِ الموجودِ فـي العَالَـم، ولكنّنا في الوَاقِـعِ لا نَمْلِكُ إلاّ وَقْتاً قَصِيراً. إنّه وَقْتٌ بَلَـغَ من القِصَرِ دَرَجَةً لا أَجْرُؤُ على تَخْمِينِهَا)(٣٢).